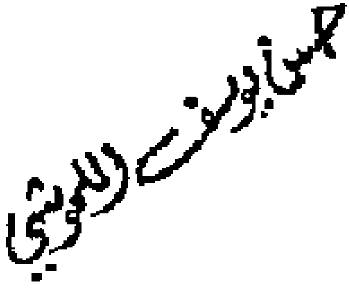
عربة الأحلام

قصص



محمد العنيزي

مجلس الثقافة العام



عـربـة أحـلام

إصدارات

مجلس الثقافة العام

عربة أحلام

قصص قصيرة

تأليف

محمد العنيزي

الناشر

مجلس الثقافة العام

اســـم الكـتاب	عـريـة أحـلام - قصص قصيرة
اســـم المؤلـف	محـمد العنيـزي
سـنـة النـشـر	2008 م
رقـــم الإيـــداع	817 / 2008 م
الـترقـيم الدولـي	978 - 9959 - 38 - 740 - 0

تـصميم الغـلاف	علي العباني
لــوحـة الغلاف	عدنان معيتيق
التنفـيذ الفنـــي	دار قباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

أثـــر فــوق الطــراوة

إهداء إلى الأستاذ علي مصطفى المصراتي

- 1 -

اســتيقظت الأقحــوانة علــى صوت زقزقة المخلوقات الــصغيرة .. فتحت عينيها في الضوء الخافت لبزوغ الفجر .. تــثاءبت وارتدت ثوبها المطرز بالاصفرار .. لتبدو أكثر بهاءً فــي عــيون الــصباح .. أيقظت الجذور النائمة في الطين .. امتصت من مخزونها .. صعدت العصارة في الساق .. ارتوى الكــأس والمــتاع .. انــتعش الميسم وطفحت لزوجته .. تسلل الــضوء على نحو بطيء .. اتضحت رؤوس الأعشاب المبللة بــندى الفجر .. اتسعت مساحة الضوء .. تبخرت القطرات من الــثغور .. ســرى عبق الأرض في نفس الكائنات .. وانطلقت تــستنطق الحــياة .. وتلامس انبلاج النور .. تحركت النسائم المسكونة بقطرات انتعاش .. لامست الأقحوانة بلطافة غزلية .. فــتمايلت في دلال مفرط .. ملكة جمال متوجة .. ترتدي ثوباً رائعاً مطرزاً بالاصفرار تتمايل وسط وشوشة الأعشاب القريبة

.. المـــنذهلة مـــن روعة الجمال .. طارت العصافير .. حطت قرب الأقحوانة .. وارتفع حفيف الأوراق.

- 2 -

تناهـــى إلـــى ســـمع الجميع وقع أقدام غير بعيد .. مدت الأعـــشاب أعناقها باتجاه الصوت .. رفرفت الطيور بأجنحتها هـــرباً .. ثمة أقدام كانت تدوس الطين .. تترك في كل خطوة أثـــراً فوق الطراوة .. في كل أثر تغوص رؤوس الأعشاب في الطـــين .. تقـــدمت الخطـــوات .. اقتـــربت أكثر .. دنت من الأقحـــوانة .. ارتفعت قدم لأعلى .. حجبت الضوء .. صارت الأقحـــوانة فـــي دائرة الظل .. أدركها الخوف .. صرخت .. هـــبطت القدم فوق الطين .. ارتفعت ثانية .. وهبطت في مكان آخـــر .. كان الأثر الذي خلفته أوراقاً صفراء ممزقة .. وساقاً نحيفة مكسورة .

* * * *

اثنـــان

في الصباح

نهى تبدو يانعة وقمرية وهي تحدثني عن صديقتها وعن خطـيب صـــديقتها وثوب الزفاف والحفل الذي سيقام .. ترفع رأســـها إلـــيّ وتقول إنها رافقت صديقتها إلى محلات الملابس وأمـــضت نـــصف اليوم في استعراض الواجهات الزجاجية .. تطيل النظر في كل دمية ترتدي ثوب زفاف .. تتفحص تفصيلة الـــثوب والطرحة .. الأكمام وفتحة الثوب عند الرقبة .. خيوط الـــزينة التـــي تحيطه .. وانقباضه عند الخاصرة .. ثم تنحدر نظـــراتها إلـــى انفـــساح أسفل الثوب .. تقول إنها كانت تتخيل الـــثوب علـــى بـــدن صديقتها ثم تنقل نظراتها إلى دمية أخرى ترتدي ثوباً مختلفاً.

وتقـــول إنهـــا انتقت لصديقتها ثوباً أبيض .. تسهب في وصـــفه لي .. وأحدق أنا في مرآة عينيها السوداوين .. فأعود مـــن رمـــال العمر الممتدة .. أنفض الغبار عني .. وألج واحة تتفجـــر بالينابـــيع .. وأرى نهى عروساً بثوب الزفاف .. ترفل وســـط جمـــع من النسوة يطلقن الزغاريد .. ويرفعن عقيرتهن

بالغــناء الــشعبي .. وتدور إحداهن حولها بالمبخرة .. تخمس بيدها .. وأراني مرتدياً بدلة أنيقة بلون كحلي .. ورباط عنق .. وحــذاء يعكــس أضــواء الــزينة المعلقة .. وألمح أهل الحي يهنئونني .. وأصدقائي يطلقون التعليقات ويباركون.

تقــول نهــى : إن أهل صديقتها وأقاربهم وصديقاتهم .. جمعــيهم أثــنوا على ذوقها في انتقاء الثوب.. وأنا أعبر إلى ضفة خيالي .. وأصطحب معي نهى إلى وسط المدينة .. تضع ذراعها حول ذراعي في زحمة المارة .. وأتحسس طراوة يدها البــضة حــين تمسك بيدي ونحن نعبر الطريق.. فأشعر أنني مــدين للخطوات التي تحملني إلى جانبها .. يرانا أحد أصدقائي القدامــى .. يلــوح بيده من بعيد .. ويبتسم ابتسامة صغيرة .. نمــضي والطــرقات لا تنتهي تحت أقدامنا .. وكأنما الشوارع تتــسع لــنا وحدنا .. نتنقل بين محلات الملابس .. نتأمل ثياب الــزفاف .. نــتوقف عند واجهة أحد المحلات .. وتشير نهى بــسبابتها إلــى ثوب زفاف في الواجهة .. تقول لي هذا الثوب يناسبني .. وأقول لها هذا الثوب يروق لي .. والبائع في المحل يناولنا الثوب الأبيض .. يعد الأوراق النقدية .. ويقول لنا ألف مبروك.

نهـــى تقول إنها ستذهب إلى قاعة عروس البحر لحضور حفل زفاف صديقتها .. يرتد إلىّ خيالى وأجلس بجوار نهى في القاعـــة .. عروســـين نتألق في ثياب الزفاف .. القاعة تمتليء بالنـــسوة ذوات الزينة .. وعلى الطاولة أمامنا قطعة (تورتة) كبيـــرة .. الفرقة تصدح بالغناء .. وأنا أمسك بالشوكة والسكين .. أقــتطع مـــن (الــتورتة) قطعة صغيرة .. أقدمها لنهى .. تقــضم مـــنها .. وأقـــضم على إثرها .. فيرتفع صياح النسوة وتمتليء القاعة بزغاريدهن.

في المساء

الحديقـــة فـــضاء واســـع .. بلا سقف .. بلا جدران .. الأضواء الشاحبة تنعكس فوق البحيرة .. أزواج يمشون الهوينا .. وأزواج يقـــتعدون الكراســـي .. الشفاه تهمس .. والكلمات تـــسري فـــي فضاء الحديقة .. تحمل دفئها وشوقها .. تذروها الـــريح الخريفية .. فترتفع لأعلى وتتعلق في فضاء لانهائي .. أطفال يركضون خلف كرة صغيرة .. يتعثر أحدهم حين تلامس الكـــرة قدمـــه.. وبائـــع الحلوى يبحث عن وجوه تنعكس عليها أصداء نداءا ته .. الكرسي الذي يحتويني يتسع لاثنين .. الحياة اثنان .. الإثنان رقم .. والرقم حمل المعنى منذ الخليقة .. وفي

الطوفان كان على متن السفينة .. الحياة آدم وحواء .. وأنا آدم وحدي .. وإلى جانبي مساحة تتسع لحواء ..

التفت إلى جانبي فأرى نهى تجلس إلى جواري .. تهمس فـــي أذني القريبة من فمها .. فيصمت كل ركن في الحديقة .. يـــستفزني الشبق الساكن في نظراتها .. يحفزني على أن أزيح قـــشرة الـــتابوت الـــذي أغلف به نفسي . تقول لي : من أين نبتديء ؟

- وأقول لها : من مولد زهرتين طالعتين فوق كف ربيع عشبية.

- وتقول لي : إلى أين ننتهي ؟

- وأقول لها : عند قمر يحمل إلينا أرجوحتين.

- تقول لي : إرو لي حكاية ..

وأروي لهـــا حكاية عاشق .. مد يده ذات يوم تحت رذاذ المطـــر .. فأنبـــتت كفه براعم وأوراقاً .. ثم تجذرت قدماه في الطين .. فاستحال جسده إلى شجرة تفاح ..

وعاشق آخر كان يروي حقلاً في ساعة من ساعات وجده .. فأنـــبت الحقـــل ســـنابل قمح ذهبية .. هرع العاشقون إليها

يحــصدونها .. واتخــذوا مــنها أرغفة يأكلونها .. فخرج من أصـــلابهم أطفال يركضون في الحقول .. ويبحثون عن سنابل الاباء العاشقين.

أستفيق من شرودي على صوت بائع الحلوى .. أهم بأن أشتري منه قطعتين .. فأتذكر أنني أجلس على الكرسي وحدي .. وأن نهى الليلة تحضر حفل زفاف صديقتها.

03/10/15

* * * *

إرث الخصوبة

- 1 -

... وكان صائداً .. يردد تعويذة القوس والسهم .. ويعبر ببوصلة قلبه غابة تمتلئ بالحكايات .. وفي كل مرة يعود إليهم وفي جعبته حكاية .. وكانوا يقتاتون من مائدة حكاياته .. ولمَّا حملوا أقواسهم وسهامهم لفظتهم الغابة ولم يعودوا بحكاية واحدة.

كان في مواسم الجني يحاكي الثمار بلغة القطاف .. ويعود إليهم بقمح وتفاح .. وكانوا يجنون نبتات صبار شوكية تدمي أياديهم ويظلون ينزعون أشواكها المنغرزة في أصابعهم.

وكان ينثر أغنياته في البساتين .. حتى وهبته الأغصان مزهرية من إرثها .. استودعت فيها أسرار الزهور .. وغدت اليمامات تحط على بابه كل صباح وتشدو :

- يا حارس المزهرية امنحنا دفقة من عطاء الزهور ..

وكانوا يلهجون بهسهسات الرمال .. فيختزنون في حناياهم السوافي .. وتمتد الكثبان في حقولهم.

- 2 -

كـــان يطير مع الأحلام المثيرة .. يحدثهم عن حلم يتأبط جناحـــيه .. يـــرى فيما يراه النائم أن حرف (لو) مجسم كبير ومجـــرور على عجلات .. يربط المجسم بحبل متين .. يجره عبر شوارع المدينة .. والمارة يتأملونه باستغراب .. يظل يجر المجسم حتى يتوقف به أمام باب بيته .. وحين يستفيق من نومه يهرع إلى باب البيت .. يفتحه ولا يجد المجسم .. ويقول لنفسه في كل مرة :

- هي أضغاث أحلام ..

وكانـــوا يُقَلِّبون الحقائق فيشعرون بالغثيان .. ويحتكمون إلى عدالة إدراكهم فيصيبهم الذهول .

* * * *

- 3 -

ذات حكايـــة قال لهم إن الحب بذرة .. وإنه غرسها في شـــبر من أرض قلبه الخصبة فأنبتت شجرة .. كلما هبط فوقها خـــريف تسَّاقط أوراقها .. ثم لا تلبث أن تعود للإخضرار حين

يطل عليها الربيع مرة أخرى .. وقال لهم إن العالم متاهة كبيرة .. ثم أغمض عينيه وأردف :

- لن أحدق في هذه المتاهة ..

اختـــصر المزهرية والحلم والحكايات في زفرة واحدة .. تتبعها رغوة طفحت فوق شفتيه .. راحوا يتلمسون برودة جسده المسجى .. ثم عاشوا يقتاتون من حكاياته المعلبة في قلوبهم.

2004/1/25

* * * *

الخيوط التي تمتد

التوقـيت (البيولوجي) يختل في داخلي .. صوت المذياع يصدر أنيناً متواصلاً ..

حكاية مسافرة على جناح أغنية قديمة (مازال شاغلني ونتشد عـنه) .. تتـزلق اللحظات على منحدر الذاكرة .. وتشدني خيوط خفـيه للـوراء .. أطـياف أثيرية تعود من خدرها القديم .. تجوب شوارع المدينة .. وبيوتاتها ذات الأبواب الخشبية المتشققة .. تتوقف عـند مـنارة (سيدي اخريبيش) .. تنفض الرماد عن الجمرات .. وتفـتح الـنافذة لأشـواق متهورة .. تخطئ درب التعقل .. يمرح الأطفـال كالغزالات عند سور المقبرة القديمة .. مزهوين بحماقات طفولـية .. ثمـة طفـل يحمل عجين الدقيق .. يتجه نحو الفرن .. تتمـسك (حليمة الدلالة) بصرة. ملابس فوق رأسها .. تدلف إلى البـيوت في شارع (بوخمسين) .. تطل المنارة من عليائها .. في قلـبها يمور حب البحر والمدينة .. ترقب أسقف البيوت الطينية .. ونـسوة يثرثرن قرب حبل الغسيل .. يجر (الكناس) عربته ذات العجلتين متكاسلاً .. وتجلس (دادة حواء) في ركن السوق .. تبيع الفول الساخن .. الحاج (مسعود) يقبض على حزمة مفاتيح في يده

.. يفـــتح باب المسجد إيذاناً بقرب وقت الصلاة .. و(العربادجي) يلهـــب جسد الحصان بالسوط .. يصيح فيه .. يمضي الحصان بعد أن يقـــذف بعره فوق الطريق .. تتأمل المنارة تعرجات الشاطئ .. زرقـــة البحـــر والسماء .. قوارب الصيد الصغيرة .. وفي سمعها هدير الأمواج المتعاقبة .. يتلاشى الزبد فوق الرمل .. رائحة البحر تفوح .. تتسلل إلى رئة المدينة .. وتتعالى أصوات الباعة في سوق الحـــوت (بـــوري ،.. فروج .. شلبة .. قراقوز .. كلب بحر) .. هـــوة الـــزمن تتـــسع .. تبتلع الليالي والنهارات .. شيء من متعة محـــزنة يراود صمت الذاكرة .. ثمة طفل يتهجى أبجدية العشق . . بـــين المنارة والشاطئ .. يركض حافي القدمين .. يبحث عن (أم بسيـــسي) .. يشع الخوف من نظراته حين يذكر اسم (الغولة) .. ويبتهج بقنديل المولد .. ترسل المنارة ضوءها في قلب الليل .. وثلة يتـــسامرون عند الشاطئ .. يحتسون الكحول المغشوش .. يتواصل أنـــين المـــذياع .. يفقد التوقيت (البيولوجي) توازنه .. المنارة .. المقبرة القديمة .. البحر .. شوارع المدينة .. خيوط تمتد .. تتشابك .. وتتجاذبني .. أيتها اللحظات المشبعة برائحة الحنين .. لا تغادري حتى أستنشق من هوائك ملء فؤادي.

* * * *

الطائـر اللعبـة

- 1 -

الصغيرة (هدى) مرحة لحد الشقاوة .. تركض مسرعة .. تقفز .. تفر مثل فأر وتختبئ في الزوايا الضيقة .. تعبث بكل مـا يقع تحت يديها .. دون أن تبالي بنظرات التأنيب وعبارات الزجر .. في فضاء نفسها الطفولي وابل من أسئلة لا يتوقف .. وهـي تعـشق الطـيور .. فإذا الأسراب عبرت الفضاء تنفتح عيـناها جذلتين .. وتهلل لرؤيتها .. تفرد ذراعيها كالأجنحة .. ترفـرف مـثل الطـيور .. وتصدر أصواتاً بالكاد تقترب من الشقشقة .. تتأمل العصافير المرتكزة فوق سطح البيت .. وفي نفـسها أمنـية تراودها .. أن تمتلك عصفوراً صغيراً .. يفرد جناحـيه أمامهـا .. يطير .. يرتفع على مقربة من رأسها .. ويظـل يشقـشق حتى إذا أدركه التعب حط فوق راحة يدها .. وكانت كلما هبط طائر في حديقة المنزل تنطلق مسرعة وتحاول الإمساك به دون جدوى.

- 2 -

الصغيرة (هدى) امتلكت طائراً لعبة ذات مفتاح (زنبرك) .. يـــدور المفتاح .. يتقدم الطائر فوق الأرضية .. ويمضي حتى يصطدم بأول حاجز فيتوقف .. أثار الأمر فضولها .. ثم بعث في نفسها شعوراً بالاشمئزاز .. واستقر السؤال في قاع نفسها ..

لماذا لا يطير طائر اللعبة مثل باقي الطيور ؟

أمسكت باللعبة .. أدارت المفتاح .. قذفت بالطائر لأعلى .. وقع على الأرض فيما ظل المفتاح يدور .. حاولت ثانية .. فأعادت المحاولة .. فأسلمت أمرها للتفكير في حل للمعضلة .. حتـــى إذا يئـــست استلقت فوق الفراش ونظراتها معلقة بالطائر الجاثم فوق أرضية الحجرة .. داعب النوم جفنيها وراحت تغط في سبات عميق .. وصدى السؤال يتردد في قاع نفسها ..

لماذا لا يطير طائر اللعبة مثل باقي الطيور ؟

- 3 -

في مساحة الحلم كان السؤال يبحث عن إجابته .. أمسكت الـــصغيرة بطائر اللعبة .. أدارت مفتاح (الزنبرك) .. وقذفت به لأعلى .. رفرف بجناحيه .. طار .. ارتفع .. ثم انطلق عبر

الـــنافذة لاحقته بنظراتها المندهشة .. ابتعد .. تحول إلى نقطة صـــغيرة وسط أسراب الطيور العابرة .. وانتظرته أن يعود .. امـــتد الانتظار .. لم يعد الطائر .. فأحزنها شعور الفقد لشيء ضاع منها .. وبكت ..

أفاقت من نومها مذعورة ودموعها تبلل الوسادة فيما كان الطائر اللعبة جاثماً فوق أرضية الحجرة.

* * * *

المعطف الأزرق

اســـتدار المفـــتاح في القفل .. والباب أصدر صريراً خافتاً حـــين انفـــتاحه .. امـــتد فـــي الظلمة إصبع ليضغط زر المفتاح الكهربائي .. نظراتها تصطدم بمحتويات الحجرة .. تسمرت واقفة للحظات تتأمل الجدران الساكنة .. والأشياء التي ظلت على حالها وقـــد ســـرت في أوصالها لفحة من هواء مختزن .. الحجرة التي ظلت مغلقة لا يتردد عليها أحد .. وحده السكون مقيم فيها .. وإذا كـــان ثمة من يزورها فهو شبح من مات وترك حنيناً وذكرى .. يطـــل بين الفينة والأخرى من خلال الهواء بطيفه الأثيري .. دون أن يمس شيئاً بأصابعه الشبحية.

فـــي ثنايا هذه الحجرة يكمن شيء حبيب إلى نفسها .. شيء يترســـب فـــي قـــاع الذاكرة .. يختبئ تحت الوسادة حين يلامس الفراش جسدها .. ويتحسس مواطن الجرح الغائر في قلبها ..

اســـتغرقتها لحظـــات تأمـــل تتفحص محتويات الحجرة .. الـــشماعة الخشبية التي تحضن معطفه الأزرق .. الملفات المائلة والمستندة على حافة الكتب فوق أرفف المكتبة .. الساعة الحائطية

التـــي تـــوقفت دقاتها مثلما توقف نبضه .. الطاولة ذات الأوراق المتناثـــرة .. ثمـــة زجاجة من عطر فرنسي قد استقرت في قاعها بضع قطرات .. كانت عطره المفضل .. أقراص من الأسبرين .. نفايات من التبغ متبقية في المنفضة .. وإلى جانبها نظارته الطبية .. صورة تلتصق بالجدار تذكرها بليلة الزفاف.

كان التغيير الوحيد الذي طرأ على الحجرة هو تراكم ذرات الغـــبار فوق محتوياتها .. وتكون شبكة من خيوط واهنة في زوايا السقف.

وإذ يجـــرفها ســـيل الـــتأمل .. يستوقف نظراتها المعطف الأزرق المعلق فوق الشماعة الخشبية .

« فـــي عاصمة الضباب كان المساء شتوياً .. الصقيع يطل بـــوجهه علـــى الـــشوارع المكتظة .. ينفث فيها زفيراً بارداً يلفح الوجوه .. ويتسلل إلى العظام كوخز الإبر .. كانت تسير بمحاذاته مـــتأبطة ذراعه في طريقهما إلى العيادة .. في واجهات المحلات ملابس رجالية مختلف أشكالها .. اقترحت أن تنتقي له معطفاً يقيه بـــرودة الطقـــس .. فـــي داخل المحل مسحت بنظراتها الملابس المعروضة لتختار له معطفاً أزرق اللون ..

قالت بعد أن احتواه المعطف :

ـ تبدو أكثر أناقة وأنت ترتديه .

ـ شكراً .. والفضل يعود لذوقك الرائع في انتقائه.

في قاعة الانتظار بالعيادة يتكوم فوق أحد الكراسي .. وهي تجلس بجانبه .. القلق يشع من عينيه .. يشرد بذهنه بعيداً ليصحو علــى صوت الممرضة ذات الشعر الذهبي المسترسل فوق كتفيها .. يتأمل الطبيب نتيجة التحاليل .. يقول بلهجة متفائلة :

لا شــيء يدعــو للقلق .. النتيجة مطمئنة جداً .. هناك أمل كبير في الإنجاب .. ».

انفجــرت شــفتاها بزفــرة كبيــرة .. فيما نظراتها معلقة بالمعطف الأزرق .. قالت تخاطب نفسها :

ما أقصر الأيام .. تحملنا على كفها .. تركض مسرعة نحو الفناء .. حيث تتحد ذرات التراب ببقايا الجسد .. ويعود الطين إلى أصله .

امتد إصبع ليضغط زر المفتاح الكهربائي .. والباب أصدر صريراً خافتاً حين انغلاقه .. استدار المفتاح في القفل .. فيما ظل المعطف الأزرق فوق الشماعة الخشبية يلفه الظلام.

* * * *

اليوم الأول للمدفأة

في الشارع :

لاح وجه الشتاء في الأفق .. احتشدت جيوش الصقيع .. تقدمت حتى إذا دخلت شوارع المدينة انتشرت .. ثم تغلغلت في ثنايا الأشياء.

ولقد علا صفير الرياح حتى بدا مثل صوت مارد مخيف كـــان يبث الرعب في قلب السحب الداكنة .. الحبلى بالمياه .. يزجـــرها .. فتبكـــي وتتـــساقط دموعها أمطارا فوق الشوارع وأسقف البيوت.

وفـــيما شرعت الأمطار تنقر بأصابعها غير المرئية زجاج الـــنوافذ .. اندلقت المياه من أفواه المزاريب لتستقبلها الطرقات .. وهرولت الأجساد المبتلة مثل أرانب مذعورة تحتمي بالمشربيات.

في البيت :

أوقـــدت الأم المـــدفأة بعد أن أزاحت عنها ذرات الغبار

العالقــة بها..توهجت المدفأة .. ازداد توهجها .. وبدأت ترسل موجات من الدفء في فضاء البيت.

تجمــع الأطفال أمام المدفأة .. فيما كان الأب جالسا على كرسيه الهزاز في الركن المقابل يطالع كتابا في يده.

ثمة قطة صغيرة اقتربت هي أيضا من المدفأة .. جلست بجــوارها .. تــثاءبت وأخــرجت لسانها .. اهتز ذيلها مرات معــدودات .. ثــم مــا لبثت أن استلقت على جنبها .. ازدادت موجات الدفء تدفقاً لتغمر كل الأشياء في داخل البيت.

احتفاء تلقائي غير معلن عنه كان يشعر به الجميع ..كان احتفاء باليوم الأول لتوهج المدفأة وحلول الدفء .. احتفاء الأب والأم .. الأطفــال .. القطــة الصغيرة .. كان احتفاء بالعرض الذي تقدمه المدفأة على خشبة مسرح التوهج.

خواطر المدفأة :

استمر الأب يطالع كتابه ويهز كرسيه ببطء .. كانت الأفكار تهتــز فــي رأسه مع اهتزاز الكرسي ..لم يعد يستوعب الكلمات المكــتوبة التي أصبحت تمر أمام ناظريه مثل أطياف ثم تختفي .. وضــع الكــتاب الذي كان يطالعه جانباً .. جال ببصره في فضاء

البـــيت وشـــعور بالـــدفء والأمان يغمر قلبه ..بدا له أن الجميع يـــشعرون مـــثله..ثـــم تسمرت عيناه عند المدفأة .. خيل إليه أنها تحدثه..

قالـــت : وسط موجات الصقيع ينبثق الدفء من قلبي الكبير لأهبه للجميع ...

قـــال : القلـــوب الكبيرة زاخرة دائما بالعطاء .. تتسع لحب الجميع .. إنها قلوب لا تعرف الحقد والكراهية ..

قالت : ثمة أناس قلوبهم مسكونة بغابة من الثلج..

قال : تلك قلوب لم توقد المدفأة بعد .. ولم تحتف بالتوهج ..

٭ ٭ ٭ ٭

تــأمــــلات

أنوثـــة :

ثمة مخلوقات تسير على أربع .. كان هو المخلوق الوحيد الذي سار على قدمين .. وكان أكثرها حسناً ونضجاً .. انتصب ملء قامته .. احتوى بنظراته جميع الاتجاهات .. ولم ينظر إلى أســفل قدمــيه .. التفت إلى قسمات المرأة المستلقية في رحابة المدى .. قال وسيل الاشتهاء يغمر ثنايا نفسه :

ـ ليس لأنوثتها موسم .. هي تعرف كيف تكون أنثى في كـــل المواســـم .. استيقظت في نفسه كائنات مشرقة .. مزقت بأظافرها ستائر الصمت .. ثم أنبتت ريشاً وأجنحة .. وطارت تــبحث عـــن مكـــنونات قلـــب المـــرأة المخبوءة في الغابات والـــصحاري والجـــبال والشواطئ .. شرع يحتسي المزيد من الجعـــة .. دون أن يصل للحد الأدنى من الثمالة .. وحين عاود من جديد اكتشاف ملامح المرأة .. استغرقته دهشةٌ طفولية.

ظـــلال :

تباطأت خطواته .. توقف عن المسير .. وتوقف ظله معه

.. نظــر إلى قرص الشمس .. وتحسس جبهته المبللة بالعرق .. قال يحدث نفسه :

ـ ما فائدة ظل يلازمني ولا يقيني وهج الشمس المحرقة ؟

واصل المسير .. تبعه ظله .. اتجه نحو شجرة كبيرة تلقي بظلالهــا علــى الأرض .. جلس إلى جذع الشجرة .. بحث عن ظله ولم يجده .. اختفى ظله في ظل الشجرة.

مــرايـــا :

تطلع إلى المرآة .. وتأمل الآخر الذي يقابله .. كان يحمل ملامــح وجــه يعرفه جيداً .. ابتسم .. وابتسم الآخر .. حرك رأسه يمنة ويسرة .. وقلده الآخر .. قال له :

ـ أنــت وجهــي الــذي أحمله معي ويعرفه الآخرون .. فالمرآة لا تزيف الوجوه .. لكنها لا ترى وجهي الآخر .

عــودة :

راودت خــوفها بالتوســل إليه أن يبقى .. أغلق الأبواب دون كلماتها ..

انفجرت دموعها شلالاً يتدفق من مجرى أحزانها .. حمل حقائبه وغادر ..

بعد أن تجرع كأساً من شراب الذاكرة قال :

ـ سـأعود إلـيها يوماً ما .. كي أسند رأسها فوق وسادة الهدوء .. قبل بلوغي المحطة الأخيرة.

مقامـرة :

راهنـته على الحب والعبث .. قادته إلى دائرة المتعة .. وجد نفسه منساقاً إليها .. في لحظات فقد فيها زمام السيطرة .. لتمـسك هي به .. كان بإمكانها أن تقوده إلى حتفه .. دون أن يبدي اعتراضاً .. وكان كل شيء يبدو له مثل الحلم ..

كانـت الدائـرة ممتعة بقدر ما هي خطرة .. قال بعد أن احتواه مزيج من البهجة والحيرة :

أقامـر بظـل يقيني الهجير .. وأمني النفس بالخواء .. وأعرف أن الندم يولد من رحم اللذة .

أزهـار :

كان يبحث عن زهرة لا تذبل ليهديها إليها .. تجول في كل البساتين .. يتأمل الأزهار .. سأل كل بستاني قابله .. وكل بائع أزهار .. عن زهرة لا تذبل .. تأسف الجميع .. وتألم هو .. لأن

عمـــر الـــزهور قصير. قرر أن يهديها قلبه الكبير .. لأنه توأم لزهرة لا تذبل.

طفولـــة :

كـــان يرقب الأطفال وهم يمرحون .. وطنين ضحكاتهم يمـــلأ الفـــضاء .. ودّ لـــو ينفـــصل عن الأشياء .. ينسلخ من اللحظـــات الحاضـــرة .. يتحرر من أعبائه .. ويرتد للوراء .. طفـــلاً يركض حافياً .. ويزهو منتشياً بنزق طفولي .. دون أن تعاتبه النظرات .. وحين يحتويه التعب .. يرتمي في حضن أمه .. حيث مملكة السكون والأمان.

رحيـــل :

ثمـــة وجوه مألوفة كنت أعرفها .. تتجلى الآن في ذهني كالأشباح .. وأنا أذرع هذا الشارع .. حضورها يبدو لي أقرب للواقع .. وكأنها تخرج من جدران هذه البيوت وتتقدم باتجاهي فأشعر أنني أتصل بها على نحو غير مرئي .. كنت دائماً أراها جـــزءاً من المشهد اليومي في هذا المكان .. وقد رحلت قبل أن تكمل حكايتها وخلفت فراغاً في مساحة الحياة المحدودة .. ثم لم يعـــد يذكرها أحد .. أعرف أنني سأرحل يوماً وألاقيها بعد أن

تتوقف أنفاسي عن ممارسة نشاطها اليومي .. حينذاك سأحيا في ذاكرة الأصدقاء ولوقت محدد ثم أختفي تدريجياً .. وأزول مثل زوال الظل..

مـــا أصـــعب أن أتخيل مجرد التخيل .. صورتي وهي تختفي من مرايا العيون التي كانت تراني.

لا مبـــالاة :

أولئك الصبية الذين يتجولون منتشين تحت رذاذ المطر.. ويعانقـــون المرح باتصال .. لم يحفظوا بعد الأبجدية كاملة .. ثمة حروف تتساقط أمام نظراتهم .. هم لايدركون كم من محطة ســـيتوقفون عندها .. ولا يعرفون أنهم سيتوقفون يوماً كعلامة منتصبة في منتصف الطريق .. لذلك هم يحتفظون بمركزهم في دائرة اللامبالاة ..

وجـــه آخـــــر

فـــي هـــذه الـــضاحية الشعبية لا تتردد الحياة في إبراز ملامحهـــا المقززة .. إنها تتعرى تماماً وسط الأشياء الرخيصة والوجوه المغبرة والعبارات الجوفاء المتداولة .. بوسعي الآن أن أرى بوضوح الخسة والقذارة لهذه الضاحية في وجه أحدهم .. إنه يجلس هناك ويبصق أكثر مما يتكلم.

رؤيـــة :

صـــباح يوم جديد يشرق بداخلي على نحو مبهج .. هذا الــيوم يخــتلف عــن سائر الأيام .. هكذا أشعر به رغم رتابة الأشـــياء المعــتادة .. أحــس بعدم الحيادية في التعامل مع هذه الأشياء وكأني أعيد ترتيبها برؤية أكثر واقعية .. عربة الخضار التــي يجــرها الــبائع .. الطفل الذي يحمل حقيبته المدرسية.. رائحة الرغيف المنبعثة من الفرن .. العامل الذي يفرغ البضائع .. بائـــع الصحف اليومية .. اللحظات تستدعي معنى الحياة في روح الأشياء التي تجمعها مساحة الضوء .. فأراها بكل بساطة وعفوية كما لم تتضح لي من قبل.

بــرودة :

تــثاءبت الأضواء والنوافذ أغلقت .. دلفت الكائنات إلى بــوابة العتمة .. هدأ الضجيج .. ولا شيء سوى ثوب قصير مــن نــوم مهلهــل .. فوق وسادة باردة .. كبرودة هذه الليلة الــسارية في أعماقي .. من جوف لحظات خاوية تمد العتمة يــديها الباردتــين .. تلــتفان حول قلبي المثقل بتفاصيل يوم صــاخب .. وأنا أتناوم ولا أنام .. والوقت يمضى مثل كائن يــسير بخطــوات مثقلة .. أتناوم ثانية ولا أنام .. فأجلس إلى

طاولة السهرة الباردة .. مواصلاً التحديق في غابة ليلية موغلة في الوحشة.

صفـــاء :

فـــي هـــذه اللحظات ليس ثمة ما يعكر صفوي .. نفسي ســـماء خالـــية من الغيم .. وقلبي وطن واسع لأجنحة النوارس ووجـــوه الأطفـــال .. بوســـع ذلك العصفور القابع فوق غصن الـــشجرة أن يلـــج فضائي آمناً وله أن يغرد من طلوع الضوء وحتى استدارة وجه الشمس في الجهة الأخرى من العالم.

قـــلـــق :

مـــن الـــسخف أن يمضي الوقت بلا معنى .. وأنا أمزقه بنـــصل قلقي المتواصل .. دون أن أفعل شيئاً .. دون أن أخطو ولو خطوة واحدة .. وأبدو كالجالس فوق أرضية حلم مشوش .. لا يتـــضح منه شيء سوى القلق .. وكأني أرى الأشياء عديمة اللون كالماء وأتذوق طعاماً يخلو من الملح.

صدفـــة :

قـــد يخفـــق قلبي على نحو غير معتاد .. أو يتوقف عن

النبض .. صدفة قد أجد نفسي في مكان ما .. قد يحدث شيء ما حـــين أنعطف إلى زاوية الشارع المقابل .. أو أتجه إلى ساحة الميدان .. صدفة قد يحدث ما يخرق ستار التوقعات.

وحشـــة :

كـــم أرثـــى لحالها .. لقد أصبحت امرأة مهجورة .. تلك التي أراها كل صباح خلف نافذة البيت المقابل ..

صـــارت تـــصنع الخيالات لنفسها .. تكلمها وتفشي لها أسرار الفواكه التي تخبئها عن أقرب الناس إليها .. تتأمل حديقة جسدها كل مساء وتقول :

ـ إن العالم موحش جدا بدون أليف.

ثم تعلق نظراتها بمدخل البيت وتقول :

ـ الحزن لا يقتل .. لكنه يكسو المكان بغطاء ثقيل ..

نافـــذة :

كنت صغيرا .. أنام في حضن جدتي .. فتهدهدني وتقول :

ـ نم ياصغيري ..

الـــنور يغمـــر المكان .. والكون يرتل تسابيحه .. يمجد الخالق الأعظم..

ـ نم ياصغيري..

ســـأفتح الـــنافذة .. ليجيء القمر ويجلس على الحافة .. ويروي لك الحكايا .. وقبل أن يودعك .. يلملم في كفه قطرات من المطر .. ويسقيك ..

ـ نم ياصغيري..

في السحر .. سيهمس الفجر في أذنيك :

ـ استيقظ أيها الصغير ..

ويهـــبك الشروق شعاعا بلون الذهب .. ويهديك البستاني إكليلاً من الزهر..

كبرتُ .. وفتحت جميع النوافذ ..

انتظرتُ مجيء القمر وقطرات المطر

وانتظرتُ همس الفجر وإكليل الزهر..

تـــرتـــيـــب :

في الضوء الذي منحه لي الصباح .. كنت أمارس ترتيب

وترتيق مظهري الخارجي .. وجهي الحليق .. لباسي الأنيق .. شعري المدهون بالكريم والممشوط بعناية .. حذائي اللامع ..

أتوقف أمام المرآة عدة مرات ثم أغادر البيت ..

وفـــي المساء .. أجلس إلى طاولتي وحدي .. يدق جرس الـــباب دون أن أفـــتح .. يـــدق مرات عديدة دون أن أقوم من مجلسي .. لأنني مشغول بترتيب وترتيق داخل نفسي ..

موتـــى :

أخبـــرتهم عـــن الموتى الذين يسيرون في الشوارع تحت ضـــوء الـــشمس .. ويقـــرأون لافتات المحال التجارية وأرقام لوحات السيارات .. ويكلمون بعضهم ويقرأون الصحف اليومية .. ويدخلـــون إلـــى المتاجـــر .. يقتـــنون متطلباتهم اليومية .. وأخبـــرتهم أيـــضا أن الموتـــى الـــذين رأيـــتهم يتنزهون على الشواطيء .. ويغازل الرجال منهم النساء.

ضحكوا جميعا باستهزاء وقالوا أنني مخبول ..

مـــنذ ذلـــك الـــيوم .. أقسمت أن لا أحدث الآخرين عن أشيائي التي تخصني.

زاويــة :

سأتجرد قليلا من فكرة أنني رومانسي .. وأحدق من بعيد فــي الصبايا الدافئات اللائي دخلن يوما إلى زاوية من نفسي .. سأتجرد من عاطفة الحنين إلى سماع أحاديثهن .. أو النظر إلى أشيائهن الجميلة .. وأشرع في النظر إليهن من زاوية خاوية ..

لكــن إحداهن ستفتح باب مودتها .. وتدعوني للدفء .. فأدخل إلى عالمها بسلام.

معــطــف :

يالمعطفــي الوحيد المتسخ من الوحل .. ماذا سأرتدي لو غسلته والبرد قارس ؟

متى سيجف والأمطار تتهاطل طوال اليوم ؟

ربما أقصد صديقا يمتلك معطفين .. وأستعير منه واحداً .. ريــثما أغــسل معطفي من الوحل .. أو أنتظر حتى يتوقف المطر ..

انتــشـــاء :

كلمـــا فــتحت بــوابة قلبها .. جاء للكلمات مخاضها ..

وصارت للنشوة رعشة تهز مزاجي المفتون .. ولأناشيد أنوثتها مـــذاق مـــن الشهد يحملني إلى إثمي .. فأغرق في انتشائي .. وقبل أن أموت في نشوتي أكتب وصيتي :

أن قلبـــي وقلـــب هـــذه الأنثى المرتمية على مرأى من شهوتي .. نشيدان متآلفان .. ورغبتان تلتقيان وامتلاك ..

* * * *

تسـارع

اسـتيقظ علـى دقات الساعة الحائطية .. فرك عينيه من أثر الـنوم .. وطنين الدقات يملأ أذنيه .. اتضحت خيوط الضوء خلال شـقوق الـنافذة .. نظـر إلى الساعة .. تحرك عقرباها كجناحين يـرغبان فـي أن يـرتفعا .. فتح النافذة .. انطلق نشيج العالم من الإحـساس بارتعـاش الدقائـق .. خرج يذرع الطريق.. العربات المـسرعة تـستوقفها الإشارة الحمراء .. والقلق ينبعث من نظرات الـسائقين .. الأقـدام المـرتطمة بأرضية الطريق تحاول اختصار الوقت .. والزمن يحتفظ بحيويته .. ويغرق حيوية الجميع في بحره .. وقف في المحطة ينتظر قدوم الحافلة .. وينظر إلى ساعة يده .. وحين سأله أحدهم عن الوقت .. كانت الملايين تضبط ساعاتها على التوقيت العالمي الموحد ..

قال لذات نفسه :

ـ لستُ الوحيد الذي يمتلك ساعة.

تناثرت الساعات .. التصقت بالجدران .. التفت حول الأيادي .. اقـتعدت فوق الأرفف .. وتوسطت الميادين .. تحول العالم إلى

ساعة كبيرة .. بين عقربيها تولد الدقائق وتموت . والكل يتحدد بين احتضار الضوء وانحسار الظلام .. في المكتب قطب المدير حاجبيه .. قال له وهو ينظر إلى ساعته :

ـ تأخرت عن موعد العمل .. لا تكررها ثانية ..

حادت الشمس عن منتصف السماء .. والدقائق معلقة بملامح الـــضوء .. انطلـــق وســـط التكدس البشري .. هوت الأشعة فوق الـــرؤوس .. سالت حبات العرق .. تبخرت .. دقت عقارب ساعة الميدان .. نظر إليها وقال لنفسه :

ـ سرقني الوقت .. تأخرت عن موعد الحافلة .

عابـــروا الشوارع يحتفظون بساعات في أيديهم .. يتأملونها بـــين الحـــين والأخـــر .. ويسرعون الخطى .. ثمة من يقف عند الجانـــب الآخر .. ينظر إلى ساعته .. يتأفف ضجراً .. في انتظار قادم تأخر عن موعده .. في محطة الحافلات نظر إلى ساعة يده .. كـــان قلـــب الساعة يعشق الحياة .. وينبض بانتعاش متصل .. قال يحدث نفسه :

ـ وحـــدهم الصغار يرسمون حدود المرح .. دون أن يعبأوا بالوقت.

* * * *

تـشــــظٍّ

صورة سريعة مقاس 3 × 4 ..

المـــصوراتي يعـــدل الكاميـــرا .. الخلفية بلون كحلي .. معطفـــي بلون كحلي .. وياقة القميص بيضاء .. ضوء الكاميرا يومض .. وأكاد أن أغمض عيني من شدته .. تظهر الصورة .. الوجه أربعيني لا يخلو من نتوءات .. والمقاس ثلاث مراحل في أربعة عقود .. أتأمل الصورة .. عيناي بانوراما .. آهتي مقبورة .. ودهـــشتي تحتفظ ببكارتها .. مساحة الصورة تكبر وتتسع .. تتشظى إلى مربعات .. في كل مربع صورة .. تتكاثر الصور .. أكور أصابع يدي .. أسندها إلى جبهتي .. وأطرق برأسي أحدق فـــي الصور .. وجوه معفرة بالطيبة .. نداءات سفر .. محاجر عـــيون جـــوفاء .. خطى تفضي إلى الوجع .. وجوه غارقة في الـــرتابة .. مرافئ لعيون حانيات .. أشواق تترمد .. أحاول أن أحصي الصور .. ألمها .. أجمع الوجوه والأماكن والسنوات .. أطرح منها الأيام المترملة .. أضربها في الهواجس والأحلام .. وأقـــسم الـــناتج على نزف الحقائق .. تتبعثر الصور فوق طاولة المـــصوراتي .. أخمـــن وأعد .. أجمع وأطرح .. أعاود ترتيب

الصور المتشظية .. أستجمع شتات وعيي .. تتخلى عني الذاكرة .. وأهمس بانفعال .. أنصفني أيها العقل الساكن في صحن الدماغ .. المصوراتي غارق في دهشته .. أعود لعمليتي الحسابية .. وأستعين بآلة حاسبة .. أضغط أزرارها .. زر للأحداث .. زر للخلان .. زر للشوارع والبيوت .. زر لنون النسوة .. زر للمقاهي والفنادق .. زر للمطارات والموانئ .. الصور تتداخل .. مولود يهبط إلى الدهشة الأولى .. ويصرخ بين يدي القابلة (المجرابية) .. مآقٍ ترى الضوء .. طفل يحبو .. وأيام تحبو .. حي اخريبيش وحي الصابري .. سوق الظلام ونخيل اللثامة .. طفل يقفز عند حدود البهجة بتمتمات الأشياء .. مدرسة سيدي سالم .. رعشة انحسار الموج عن الشاطئ .. طقطقة أجنحة الطيور العابرة .. إيقاع رخات المطر .. طفل يركض بنعل ممزق .. زمن تلهث أنفاسه في لعبة الصغار (ليبرة حلت وتحل) يستعيد الزمن أنفاسه ويركض .. تاجوراء والساحة الخضراء .. فندق ابشرون .. مطار موسكو .. ميناء باكو .. مدرسة عمر المختار .. نهج بورقيبة .. مطعم انتوريست .. شارع عشرين .. ميناء كراسنا فودسكا .. مقبرة الكويفية .. جوازات سفر وحقائب .. سان بطرسبورغ .. مطار قرطاج .. بطاقات دعوة لحفل زفاف .. نتيجة تحليل حمل .. مستشفى

الولادة .. الصور تتشظى وتتداخل .. ألمها تتبعثر .. المصوراتي مذهـــول النظـــرات .. والدهـــشة تفغر فاها .. العملية الحسابية تحـــولت إلـــى معادلات تفاضل وتكامل .. وأنا نفذت من ذهول المـــصوراتي وعمليات الحساب .. وانسربت مسرعاً أبحث عن صندوق ألملم فيه الصور المتشظية.

2004 / 3 / 17

* * * *

تفـاح بلـون الذهـب

فـــي انتعاش هذا الصباح .. قطفت عناقيد أمنيات تتدلى فــوق خاصرة المدينة .. وتقاسمتها مع طقس كان يمر ويحمل إلـــيَّ كلامـــاً موشـــى بالألفـــة وله حضور يطغي على هياج الشوارع.

وإذ تطـــل الوجوه من الشرفات .. والشمس الطالعة من ســماء ناعمـــة تفرش ضوءها على الشوارع .. فأشعر أنني صباح منتعش .. أتوحد مع النهار .. فتنتظر المدينة إلى أناقتى وتنبهر العيون من وسامتي وأنا أرى إلى فتاتي الأنيقة تحتسي القهــوة وتغــري الفــنجان بمذاق الحلاوة في الشفتين وتكوي جــسدي بلمعان نظراتها كلما تحدثتُ مع الأخريات .. قالت : أنـــت مخادع كبير وبكت .. وجففت دموعها بالمنديل الأبيض الذي أخرَجته من كيس مناديل الورق المختبيء في حقيبة يدها .. أقــسمتُ أمام دموعها بأنني لست مخادعاً .. وهدأتُ خوفها .. نظـــرت إلـــى وأثر الدموع في احمرار عينيها وبدت أكثر جاذبية.

آه يـــا فتاتـــي .. أنـــت مـــثل تفاحـــة ذهبـــية تحرسها الهـــسبيريدات..[1] أخبرينـــي يـــا ابنة يوهسبيريدس[2] .. كيف يتحول الذهب إلى تفاح .. وكيف يخرج التفاح من الذهب ؟.

أحـــب التفاح والذهب .. أحب لمعان الذهب .. ورائحة التفاح ولونه .. أحبك .. وأحب هواء يوهسبيريس .. أستنشقه .. وأزفره فأنتعش بالهواء البليل.

أحـــب بياض الملح .. أحب يوهسبيريدس .. وأحبك يا فتاتي .. يوهـــسبيريدس تـــنام في حواسي الخمس .. فأين أضعك أنت .. سأحملك إلى بياض الملح .. ليصبح جسدك البض لاذعاً.

قالت : يا ابن مدينة الملح .. أمهرني تفاحات ذهبية لأمنحك أنـــوثة هـــذا الجـــسد وقلـــباً لا تفتر عواطفه ..تسللت على أطراف أصـــابعي ودخلـــت بـــستان[3] الهسبيريدس .. أغويت الهسبيريدات الثلاث .. الواحدة تلو الأخرى .. وسرقت من البستان تفاحات ذهبية وعدت إلى أهلي .

قلت لوالدتي : ـ هذا مهر خطيبتي.

واستغربت وسألتني : ـ من أين جئت بالتفاحات الذهبية ؟

رويت لها الحكاية .. لم تصدقني وقالت :

ـ قد يكون كلامك صادقاً وأغويت الحارسات الثلاث .. لكن ثمة ثعبان هو الآخر يحرس شجرة التفاح الذهبية.

قلت لها: ـ أنا لم أر الثعبان يا أمي.

قالت بعد أن عرفت صدق كلامي :

ـ أنــت ابــن بــار ولو كنت غير راضية عنك لوقعت فريسة للثعبان.

اجــتمع أهلــي وأهل خطيبتي .. عقدوا القران .. قرأوا فاتحــة الكتاب .. رفع المأذون يديه إلى السماء يدعو .. وأمن الحاضرون .. صارت الفتاة حلالي وقالت :

ـ الحياة حلوة وجميلة في عش آمن يجمعنا.

ثم قالت حماتي الطيبة القلب :

ـ أنــت ابن حلال وابن ناس طيبين .. ابحث عن شقة تــسكن فــيها ابنتي .. الشقة هي الأهم .. البلد مليئة بالعمارات والمــساكن .. وكلنا ندعو لك بالتوفيق .. أنت طيب وابن أصل ومــا عندنا فيك ما نقولوا .. أبي الذي يدخن بشراهة ويقضي جــل وقــته في سماع نشرات الأخبار. قلت له : أنا في ورطة أريد شقة أسكن فيها بعد إتمام الزواج.

ـ قال وهو يستمع إلى أخبار التفجيرات في بغداد :

(دبـــر راســـك أنت اليوم راجل ما نكش صغير .. وأنا ما عـــندي مـــا نديـــرلك) .. عـــادت إلى ذهني فكرة سرقة التفاحات الذهبية.

آه يـــا فتاتـــي .. جمالـــك مثل تفاحة ناضجة .. يبهرنـي اللمعـــان في احمرارها .. وتستهويني رائحتها .. تتخلل شهيقي .. تـــسري في جوفي .. وترتقي إلى سقف رأسي .. فتمنحنـي انتشاءً لا حدود له.

في المرة الأولى سرقت التفاحات الذهبية .. وقدمتها مهراً لخطيبتي .. بعد أن نجوت من الثعبان الذي يحرسها .. والمـــثل يقـــول (مـــش في كل مرة تسلم الجرة) .. ليس أمامـــي حل آخر .. تسللت إلى البستان .. والقمر يختبيء خلـــف حجـــاب الظلمة .. لم ينكشف أمري .. التقطت من الشجرة تفاحات ذهبية .. وضعتها في الكيس الذي كان معي .. ثـــم قلـــت لنفـــسي هـــذه لا تكفي .. سأقطف المزيد من الـــتفاحات .. رحت أقطف وأقطف .. وأضع في الكيس .. كـــنت لـــصًّا حقيقيًّا .. يتسلل في الظلمة ويحمل كيساً فيه المـــسروقات .. سمعت صوت خِشخشة في الظلمة .. التفت

إلى مصدر الصوت .. كان الثعبان قد اقترب مني .. وغرز نابه المسموم في ذراعي.

2 / 4 / 2006 م

* * * *

الهامـــش

(1) هـــن مجموعة من الحسان يحرسن شجرة التفاح الذهبي التي غرستها الإلهة هيرا في بستان الهسبيريدس كما ورد في الميثولوجيا اليونانية.

(2) اسم مدينة بنغازي في العهد اليوناني.

(3) البستان الأسطوري الوارد ذكره في الميثولوجيا اليونانية.

* * * *

جـداريـــة

في النهار تكشف الجدارية عن طميها .. محفوفة بالوجوه الطالعة في الدروب .. محاطة بثرثرة المقاهي .. ونتانة روائح بقايـــا الأطعمة .. مكللة بعرق ولهاث وحفيف أحلام .. ورائحة خمـــر محلـــية تتضوّع في الأفواه .. ترنيمة السوق البلدي .. ونـــسوة يفترشـــن الأرض .. يـــبعن البخور والحناء .. الوشق وأعواد القماري .. عيون تغادر محاجرها إلى أجساد مومسات يـــرتدين الجلاليب .. يضعن الأصباغ على وجوههن بعناية .. ويتطلعن بابتسامات باهتة .. طماطم وبصل .. بقدونس وبطاطا .. فواكه وتمر جالو .. أكياس خبز ساخن .. سمن بلدي وعسل نحل طبيعي.

صـــديقي ذو النزق المحبب .. يفرك نصف قرش حشيش .. يـــنفث الـــدخان مـــن خياشيمه .. يحدق في الجدارية بعينين حمراوين كسولتين ويقول :

- بأي حلم تفرح هذه الأرواح ؟

الوجوه في المقهى تحاصر الطاولات .. الأصابع تقبض

على الأكواب .. والأفواه لا تكف عن الطلبات .. يجيء النادل .. فـــوق تعب أصابعه يحمل الأكواب .. يمارس عادة ترحيبه اليومية .. وأطلب منه النارجيلة .. صديقي المسطول ينظر إليّ مثل قط كسول ويقول :

– الجدارية لا يراها إلا المساطيل.

وأقول له :

– أنـــت تهذي .. والتفت إلى حيث ياسمين ترتدي مسحة ليلـــية .. وتحتـــرق كفراشة فوق قنديل .. تمشط شعرها الذي خالطه البياض .. وتنظر إلى المرآة وتقول لنفسها :

– ظل راجل ولا ظل حيطة.

يجتاز النادل ثلة المتقاعدين الذين يلعبون الورق .. يجئ بالنارجـــيلة .. يقـــبض علـــى الجمرة بالملقاط .. يضعها فوق المعـــسّل .. أجذب نفسًا عميقاً .. وتتصاعد فقاقيع الماء محدثة قرقرة في جوف النارجيلة .. تسقط قطرة انتشاء في بئر يقظتي .. تـــؤجج رتابتـــي المحنطة .. تؤجل قليلاً حركة المرور في الـــشارع .. فتدور المدينة عدة دورات حول نفسها بعكس اتجاه عقارب الساعة ..

وأجدني ثملا بحسٍ يقودني صوب أولئك الرائقين .. الذين يستندون إلى شفافيتهم .. أصافحهم .. وأقول لهم بصوتي المتهدج :

- أين أنتم يا أصدقائي الطيبين ؟ ولماذا لم أعد أراكم ؟

تعود حركة المرور في الشارع .. أعود للجدارية .. وصديقي المسطول عيناه ضائعتان .. مثل طفل خاب ظنه عند انتهاء الحكاية .. أحدق في الجدارية .. أين وجوههم التي أعرفها ؟ .. وجوههم لا أراها .. عسى المانع خيرًا يا متون الذاكرة .. ياسمين جوقة دائمة .. وتراجيديا لانسراب الظلال .. وحديث الجسد النافر .. أضعها في كفة ميزان .. وفي الكفة الأخرى أضع مجر آلامي .. في كل صباح تستبدل الزهور الموضوعة في أصيص على طاولة مكتبها .. ويجيء الرجال إلى المكتب ويغادرون .. ويحملون أوراقهم وملفاتهم .. ويصطحبون معهم ظلالهم .. بعد أن يتركوا رائحتهم تعبق في المكتب .. فتعلق الرائحة بقميص ياسمين وصديريتها وتنورتها وشعرها .

فوق الرصيف تعرف قدماي مسارها .. الشيوخ يتكئون على العصي .. ويمضون كالسلاحف .. والفتيان يتبخترون ..

ويختطفون الأحصان لخيالهم الوارف .. خطواتهم تدق الإسفلت .. خطواتـــي تدق الإسفلت .. والمسافة أمتار تائهة .. المسافة مجمـــوع خطواتـــي وخطـــواتهم التي تدق الإسفلت الخامل .. وياســـمين تحث الخطى في طريق عودتها من العمل .. تعرج علـــى بائع الكتب .. تقتني ديوان شعر .. وكتاباً عن فن إعداد الأكـــلات .. تمـــضي خطواتها تدق الإسفلت .. وتظل تحصي الظلال .. ظل كبير وظل صغير .. ظل طويل وظل قصير .. والإســـكافي الـــذي ورث نواميس المخرز .. يطبب بالوخزات بطون الأحذية التي ستدق الإسفلت الخامل.

وفـــي هدأة الليل .. تتفلت ياسمين من ضجيج إخوتها .. تنتظـــر نوم أمها .. وتكتب خواطرها عن الحب الأفلاطوني .. وأنـــا أسند رأسي إلى الوسادة .. فأحلم بوجوه هلامية .. تتجمع مـــثل قطعـــان كـــسولة .. تغوص في طين الرتابة .. وتروي حكايـــات أشبه بخرافات العجائز .. أقترب من الملامح فأجدها متشابهة لدرجة يصعب معها التمييز بين الوجوه .. وأحدق في العيون فأراها كأسطح بحيرات راكدة.

2004 . 4 . 28

* * * *

جـوقـة الـديــدان

هذا النهار إطلالة حزن .. والمدى أسراب من طيور تسرح وتنشر الكآبة ..

صـــديقي المـــسكين .. تعـــذب كثيراً وتمرمد وعاش عيشة الكلاب .. والموت أريح له كما يقولون .. والقبر أولى بهذا الجسد الذي أنهكته الأيام.

حـــزن ثقـــيل هبط فوق رأسي حين سمعت خبر موته .. الحـــزن جزار بسكين حادة .. يذبح لحمة القلب .. يقطعها ويتلذذ بـــرؤيتها قطعـــاً صغيرة .. يسكن القلوب .. يجيء ويرحل مثلما البشر يجيئون ويرحلون .. ونحن المسكونين دائماً بقلق الموت .. نحيا بجناحين .. واحد لأفراحنا وآخر لأحزاننا.

فـــوق شـــواهد هـــذه القبور أسماء وتواريخ .. فيها وحشة الصلصال .. وبلاغة التراب والحجر .. تغطيها الأعشاب وبعض النـــباتات الفقيـــرة .. مـــن صمت القبور ينبثق نداء الأرض حنيناً وتـــراباً .. لمـــاذا ترهبنـــي رؤية القبر ؟ لماذا أخشى سماع نداء الأرض .. وأهرب من مواجهة التراب ؟ تمتلىء الحواس بوحشة

المكـــان والـــزمان .. برائحة الموت .. والطيور التي تشقشق من خـــلال أشـــجار المقبرة .. تغني سلام الموتى .. وخمود الجسد .. والنوم الأبدي.

قالـــت أمـــه العجوز الطيبة التي يعز عليّ رؤيتها في ثوب الحزن :

« اوحـــق سيدي مرعي ساكن جردينة ما قصرت امعاه .. ويعلـــم الله اني جريت امعاه بحد جهدي لكن ياوليدي أنت عارف كـــل شـــي .. حتـــى حويشنا الواسع اللي في (السبّالة) بعد ميتة الحـــاج بعـــناه وخذيـــنا حوش أصغر منه .. بيش اتزيد لنا تفتوفة يزوج بيها .. لكن كل شي مكتوب وامقدر .. الفلوس كلهن راحن في العلاج بين الأردن وتونس و مصر .. »

فـــي ســـرير المستـــشفى والممرضة واقفة تدقق في قراءة اللـــوحة المكتوب عليها بيانات عن حالة المريض .. كان صديقي ينام هامداً .. يتنفس ويحدق فينا نحن الواقفين أمام وهنه وعجزه .. يقول في النظرات كلاماً كثيراً .. يعرف أن زائراً سيأتي قريباً .. ليصطحبه معه .. يودعنا بلغة أخرى .. بالمعنى الكامن في النظرة .. يقـــول لنا أشياء كثيرة .. تخيلت تلك اللحظات أن بجانبه جهاز يحول النظرات إلى لغة مكتوبة .. يصدر الجهاز صوت تكتكة لا

تـــتوقف .. فـــيما يخرج من فتحة الجهاز شريط ورقي طويل .. مكـــتوب فـــيه كل ما يعتلج في صدره .. ما يؤلمه وما يحزنه وما يحـــز في نفسه .. كل ما حدث معه في الأيام التي مرض فيها .. ولم يعد يقوى على الوقوف ..

والمـــبالغ التـــي صرفها على علاجه في خارج البلاد على حـــسابه الخاص .. والمحاولات التي باءت بالفشل للحصول على مـــوافقة من أجل علاجه على نفقة المجتمع .. وحزنه وهو ينظر إلينا كلما زرناه في فراشه ..

أمـــه العجـــوز ذات الفم الشبه خال من الأسنان قالت وهي ترشف وتتنهد :

« الله غالـــب ياولـــيدي جرينا واجد بيش نحصلوا له علاج علي حساب الدولة لكن اللي ماعندش واسطة يموت ياباتي كل شي تـــم بالواســـطة .. الله غالب درنا اللي علينا والباقي على الله .. . اللـــي كيفنا نحن راقد ريح وماعنده من يوقف امعاه .. لكن لنا الله ياباتي ربي ماينسى حد .. »

لم تتوقف العجوز التي يسكن الحزن قلبها عن الدعاء لابنها .. كانـــت تـــرفع يـــديها إلـــى الـــسماء وتدعو بجاه كل الأولياء والـــصالحين فـــي الـــبلاد أن ينهض ولدها الوحيد الذي عانى من

المـــرض كثيراً .. تتمنى أن يعود إلى نشاطه وشبابه وحيويته .. يتزوج ويعيش معها في الشقة الصغيرة .. يظل يقفل باب الحجرة ويختلـــي بـــزوجته الشابة الحلوة حتى ترى بطنها منتفخة .. وفي المـــوعد يـــنقلها إلى مستشفى الجماهيرية للولادة .. ثم يعود وهو يـــزف إليها البشرى بأن حفيدها صرخ مع أول ضوء .. وتزغرد .. تـــضم حفيدها الصغير .. تهدهده .. تغير لــــه الكوافيل .. يكبر ويـــردد .. ديـــدة .. ديدة .. ديدة .. فيعبر نداؤه الصغير إلى بوابة قلبها ..

كانـــت أمه تدعو طوال اليوم .. تردد الأدعية التي سمعتها مـــن والـــدها الرجل الأمي الذي كان يرددها أمامها في أيام الجمع بعد أن يحفظها من الخطيب في المسجد.

وكـــنا نحن عاجزين عن فعل أي شيء لأجله .. يتألم ونتألم معه .. كل الأصدقاء تألموا لأجله.

فـــي المقبـــرة تقدم المشيعون عبر طريق ترابي تنمو على جانبـــيه أعـــشاب خفـــيفة .. وتـــتخلله بعض الأحجار الصغيرة المتناثرة..

الدمـــوع مختبئة في عيون الأصدقاء .. النعش محمول فوق أكتافهم .. والمشاعر غارقة في نواح خفي .. الطين حضن الجسد

.. والجسد حواس ميتة .. أخاديد ومسارب لشبق الديدان .. الديدان ترمومتر العفونة .. تبحث عن لذة ناضجة .. ترقص في العفن .. وتقـتات من الأعضاء المخبأة .. تنام من التخمة .. تضاجع التربة .. تقـذف ماءها .. يسيل العفن .. يبلل شهوة الطين .. سرير اللذة البدائـية .. معـصرة الصلصال .. ومائدة العفونة .. جوقة للعفن والنتانة .. ولحن يرتقي كمائن الجسد .. القبر ذاكرة الديدان والعفن .. فراغ مستطيل .. وزمن مرصود لنتانة روائح الجسد ..

أتبادل مع المشيعين حمل النعش فوق أكتافنا .. ننعطف إلى طـريق فرعي وسط القبور .. ياإله الناس إرحم ضعفه وقلة حيلته .. هذا النائم في نعشه دون حراك. الموكب المهيب يعبر إلى القبر .. وأنـا أعبر بوابة خيالي المحزون إلى صورة قديمة في شوارع (الـسبّالة) .. إلى صديقي الشاب الوسيم الذي كان يرتدي الجينز الأزرق .. والفانلـة البيضاء .. يبتسم دائماً .. ويطلق النكات أمام الجميع .. ويشاكس المدرسين في الفصل الدراسي .. يشارك فريق الحـي في لعبة كرة القدم .. ويشجع فريق أهلي بنغازي .. وفريق البـرازيل .. أراه يـدخن مـن علبة الرياضي ويشير إلى صور اللاعبين المعلقة على جدار حجرته ..

لـم يعـد يقطن حيزاً ما في هذا العالم .. لم يعد يرسم أيكة

أحلامـــه الوردية .. ولم يعد يضع يده في جيب بنطاله كعادته وهو يـــتحدث ويشير بيده الأخرى موضحاً .. وأنا المحزون قلبي لغيابه دون أن يعـــود .. رتـــبت اســـمه حـــسب أبجدية الذين فقدتهم .. وأدرجـــته في ملف الأسماء والتواريخ المحفورة في ذاكرتي .. يا دموع الحزن .. صديقي عيناه مطفأتان .. وقلبه يغرق في الصمت .. كونـــي مطراً صافياً .. يهطل فوق تربة قبره ..عسى أن تنبت عنده الأعشاب وتزهر ..

أنـــزلناه القبـــر .. أهلنا فوقه التراب والدموع .. فيما تعالت أصوات الواقفين خلفنا تردد سورة يس ..

2006 . 7 . 25

* * * *

حكايــة السنـبـلة

- 1 -

بدأت الحكاية من بذرة صغيرة

في إحدى الصباحات الخريفية افترشت البذرة مساحة من الطـــين الأحمر .. تدثرت بحبيبات صغيرة جداً .. وطفقت تحلم بمجـــيء الـــسحب البيضاء الزاخرة بالأنوثة .. تحقق الحلم .. تغلغـــل المـــاء في جوف الطين .. وانبثقت من أحشائه مخلوقة صـــغيرة ذات عـــنق طويل .. فرحت الأرض بقدوم المولودة الجديدة .. وقالت للشمس في لحظات الشروق :

- هـــذه ابنتي الجديدة ... أسميتها (السنبلة) .. انظري كم هي جميلة ورائعة.

باركت الأرض قدوم السنبلة .. أهدتها فيضاً من أشعة .. لفت السنبلة فيض الأشعة الذهبية حول جسدها النحيل .. فبدت أكثر أناقة.

أقامـــت الأرض مهرجاناً بهيجاً لملحمة الخير والعطاء ..

عـــزفت الرياح إيقاعات عذبة .. تمايلت السنبلة .. رقصت .. أزهرت فوق شفتيها الأغنيات .. ابتهج الجميع لحد الانتشاء .. والفرحة كانت بلون أجنحة الفراشات.

– 2 –

فـــي صـــباح يوم قائظ .. والشمس ترقب وجه النهار .. اســتيقظت المـــناجل من سباتها .. امتدت يد خشنة تقبض على المـــنجل .. قطعــت عنق السنبلة .. قالت الأرض وهي ترقب المشهد عن كثب :

– هنيئا لك أيتها السنبلة ..

دار رحـــى الطاحونة .. تمزقت حبات ذهبية صغيرة .. فيما كان الجميع ينتظرون الرغيف .. اشتعلت جذوات في الفرن .. كبـــرت وكبرت .. تصاعدت رائحة الرغيف في كبد السماء .. تقهقـــر وحـــش الجوع .. تضاءل .. ورددت الشمس أغنية قديمة يقول مطلعها :

– ثمة مخلوقة ذهبية صغيرة ..

رائعة وجميلة .. تضحي بسخاء ..

لنعانق السنبلة جميعا ..

ونبارك السنبلة جميعا

ونحتفي بالعطاء ..

* * * *

خيـمـيـاء اللـون

– 1 –

اللـــوحة تــرتفع فوق الحامل .. مغامرة اللوحة تبدأ من لحظات يمسك القلق بتلابيبها .. وتنتهي بمساحة لونية .. هاجس اللون يفد على ذاكرته ويقيم .. وهو لا يكاد يقيم حتى يرحل .. يــتخذ الخـــيال من الذاكرة رحبة فسيحة .. فيها تتداخل الألوان والظـــلال .. الخطـــوط والأشكال .. خليط من وشائج ملونة .. أحمـــر .. أزرق .. أصفر .. أخضر .. بنفسجي .. حنين اللون للقاء اللون .. شوق لا حدود لسطوته .. عاشق ومعشوق يلتقيان .. يــتمازجان فــيولد لون آخر .. لغة اللون تغوص في أعماق الحـــس .. وتبادل المشاعر نخب الكينونة .. وشائج القلق تزداد ارتباطاً .. انفعالات .. شعور .. انطباع .. تشكيل .. ميتافيزيقا الـــضوء والظـــلال .. حدود الزمان والمكان .. إيحاءات اللون للظل .. محاكاة الظل للون .. لعبة الخطوط والأشكال.

فـــي قلب اللون غمس ريشته .. أزرق .. أحمر .. لون آخـــر .. خلطة أخرى .. اجتهد في خلط الألوان... توقف قليلاً

.. نظر وتفحص ثم عبس وقطّب .. بدت الألوان مثل نتف من صـــور متفرقة .. ليس ثمة ما يربط بينها .. زحف الطين إلى الأحمـــر .. والرماد إلى الأزرق .. وساد الشحوب البياض .. خلـــت الألوان من البريق .. وأحس بهوة تتسع بينه وبين اللون .. صــــارت الألـــوان قوس قزح بعيد المنال .. اختلطت أشياء كثيـــرة في ذهنه .. الألوان تتداخل .. تتناغم .. تتنافر .. أعاد المحاولـــة .. اجتهد في خلط الألوان .. زحف اليأس صوبه .. تدرج في معارج نفسه حتى صار بلون القتامة فوضع الريشة .. واستدار مولياً ظهره للوحة.

- 2 -

ذات لحظات استسلمت فيها حواسه لملامسة اللون .. كان شــــيء من الغموض ينجلي عن مسارب لم تكن مرئية .. أمسك بريـــشته .. وضع الخطوط والظلال .. عاد البريق يعانق اللون .. واتـــضحت التفاصيل .. تحولت مساحة اللوحة إلى بورتريه لامرأة تحمل باقة من الزهور في يديها.

2002.8.16

* * * *

ذكريات الأزقة الضيقة

(1)

صعب أن تجد نفسك وحيداً .. وكل الوجوه التي تعرفها ابتلعتها حفر مستطيلة .. وهي تنام الآن في المقبرة القديمة نومها الأبدي .. وأنت جالس أمام دكانك القديم .. تتأمل المباني الإسمنتية الشاهقة .. وفي ذاكرتك صورة الحي القديم .. ثمة رجال كانوا يرتدون (الفرملة .. الشنّة .. والبلغة) .. ونساء كن يختفين خلف العباءة التي لا تسمح بالرؤية إلا من خلال ثقب صغير .. حتى زينتهن كانت لا تظهر إلا في الأيادي المخضبة بالحناء .. تغير كل شيء .. تغيرت المذاقات .. أصبحت بالنسبة لك مذاقات تدعو للتقيؤ .. أحداث كثيرة كنت قد شهدتها .. الجامع القديم .. الأزقة الضيقة .. وشاطيء البحر .. كلها كانت شاهدة عليها .. وعلى سطح ذاكرتك المسنة طفحت أشياء كثيرة .. أشياء اختفت وأشياء ظلت على حالها .. أشياء ارتطمت بجدار الزمن وتحطمت .. وأشياء أخرى تدحرجت من أعلى القمة لتستقر في القاع.

(2)

يـــتخذ الحـــزن من قلبك سكناً حين تذكر (امعيوفة) .. كانت لباساً لك .. وكنت لباساً لها .. وكانت طَيّبة طِيبة الأرض .. وتخــشى علــيك مــن كيد النسوة اللائي يترددن على الفقي (حامد) .. لم تعرف من الدنيا سوى (خبزة التنور .. الرحى .. دقــيق الشعير .. والدشيشة) وكانت تبدي لك زينتها بالحناء والــسواك ورائحة القرنفل التي تفوح من شعرها .. ولابد أنك تذكــر جيداً تقاسيم الوشم المرسوم على وجهها حسب الموضة السائدة في ذلك الوقت .. (امعيوفة).

لــم تــشاهد فــي حــياتها أغانــي الفيديو كليب .. ولا المسلــسلات المدبلجة .. ورحلت عن الدنيا بعد أن أدت صلاة الفجر .. ودعت لك بالربح الوفير في تجارتك ..

(3)

المديــنة امتدت أفقياً .. الشوارع الواسعة تبتلع الرؤوس المتنافــرة والأقــدام المسرعة الخطى والوقت في المدينة مثل وحش يلتهم الدقائق والساعات .. كل شيء تغير .. لم تعد ترى أصدقاءك القدامى .. لا أحد يعبأ بأحزانك .. وهي كالنهر الذي يبحث عن مجرى للتدفق ..

تظـــل وجـــوه الراحلين تلاحقك .. تلوح أمامك كالأشباح وتختفي .. فيما أنت جالس أمام دكانك القديم .. تهمس في أذن الأيـــام .. تـــروي لها حكايا الحي القديم .. والوجوه الطيبة .. وتذكر وحشة الزمان والمكان .. البدايات والنهايات .. والرحيل بلا عودة ..

*****

ســوق الـجمـعـة

تجلــت الـــشمس معلنة بدء نـهار آخر .. اتضحت معالم الـــسوق في طرف المدينة .. وانتعشت أوصاله بحركة القادمين .. حملـــت الكواهل كل ما يمكن حمله .. أفرغت البضائع من مؤخرات السيارات .. ودائرة الزحام بدأت تزداد اتساعاً.

أصـــوات الـــباعة تتصاعد (أقربوا ياشراية .. القطعة بدينار)..

(فرحوا العويلة البدلة بدينارين بس..) مزاد يفتتح حول قطـــع أثـــاث قديمة .. مساومات .. تحايل على الأسعار .. ثمة أكشاك متنقلة تناثرت لبيع المرطبات .. أكتاف تتزاحم .. عيون شاخصة تمسح المكان بفضول .. مواد غذائية .. كتبٌ ومجلات أصفرت أوراقها ..

قطع غيار تسرب إليها الصدأ .. مفروشات انسلت بعض خـــيوطها .. مـــواد كهـــربائية .. ثلاجات وأفران مستهلكة .. صحون هوائية.

في الجانب الآخر أقيمت بورصة الخبز اليابس .. تتكدس

أكـــياس الدقيق المرصوصة بقطع خبز يابسة .. يتجمع (موالة السعي)[1] .. وتجري مجادلات حول الأسعار.

يـــتقدم (بوشوال) بسيارة تنفث سحائب دخان أبيض .. ينتحـــي جانـــباً من السوق .. ترجل وفتح الباب الخلفي لعرض بـــضاعته .. فـــرك يديه .. تفحص المكان والوجوه .. وشرع ينادي بصوت جهوري :

(أقربوا يا شراية .. افتحو الباب ..).

– 2 –

علـــى مسمع من أذن الليل قالت (نوارة) توصي بعلها (بو شوال) قبل أن يهجع إلى فراشه :

(عمران ما عندش سروال يمشي بيه للمدرسة .. ونجية تبـــي كندرة جديدة .. وسالم يبي بدلة رياضة وكاويش .. بيش بكرة اتجيب لهم كراسات وأقلام ..).

– 3 –

تجمـــع سماســـرة السوق حول (بوشوال) .. يفتتح المـــزاد .. تبدأ المزايدات .. وبعض الوجوه تنم عن خبث

مبطن .. تتصاعد الأصوات .. نداءات باعة .. ثغاء خرفان .. نــباح كــلاب .. صــياح ديكة .. يزداد المكان صخباً بموسيقى الأغاني الشعبية وأغاني الفيدو كليب المنبعثة من أجهزة التسجيل.

اســتمرت المزايدات .. وقرص الشمس يزداد توهجاً .. اســتجمع (بو شوال) كل ما لديه من فطنه وذكاء .. تزايدت دائرة الوجوه حوله ..

قال الرجل ذو النظارة الشمسية :

- خمسون ديناراً .. وصمت برهة .. توقفت المزايدات.

- 4 -

(راك تنــسى اتجيب معاك خضرة .. الثلاجة فاضية .. والــصغير يبي كوافيل وحليب .. وجيب امعاك دجاجة للغدا .. انسيت ما قلت لكش البارح).

أردفــت (نوارة) توصي (بوشوال) قبل خروجه من المنزل.

- 5 -

لحظــات أعلنت فيها حواسه حالة الاستنفار .. وفي نفسه موجتان من قبول وتردد .. مسح الوجوه المحيطة به ..

ردد الرجل ذو النظارة الشمسية :

- خمسون ديناراً

لــم يــزايد أحد .. أعلن (بوشوال) موافقته .. وقبض الثمن.

- 6 -

وسط غابة الأجساد .. شوهد (بوشوال) يتحسس جيوبه الخاويــة .. وحبات العرق تتقاطر من أعلى جبهته لتستقر عند ذقنه .. كان أثر موسى حلاقة قد أحدث شقاً في جيب سترته.

* * * *

(1) تجار المواشي.

صـنـدوق البـريـد

تجرجرني خطاي إلى مكتب البريد .. أنا المرشوق بسهام التمني .. أبدد اللحظات في وهم الانتظار وألمح الحلم صحواً .. فأغـيب فـي مـتاهات حيرتي .. أتمرد على يأس يلاحقني .. وأمني النفس بأن مكتوباً سيصل وإن تأخر ..

في داخل المكتب كانت امرأتان .. ورجل مسن .. وشاب حلـيق الذقن .. جميعهم معلقة نظراتهم بموظف الشباك .. في انتظار أن ينادي أحدهم لمكالمة خارجية .. المشاعر مركب تائه يبحر دون أن يستقر .. الصباح انتظار ما قد يأتي .. والانتظار وخزات في القلب ..

في هذه المساحة تلتقي المفاجآت .. خفقات .. عواطف .. خلجات .. مكالمات هاتفية .. رسائل .. مشاعر تصل من وراء البحار .. أو من أي مكان فوق الكرة الأرضية .. أخبار تسر أو تُفزع .. أمنيات معلقة فوق شماعة متآكلة.

تـوجهتُ إلى الناحية المقابلة .. حيث صناديق البريد .. استرقتُ النظـر إلـى صـندوقي من خلال المربع الزجاجي

الصغير .. رأيته مساحة مربعة باردة .. وفي لمحة عابرة .. توقف الخيال بين غيبة الحواس ووقدة المشاعر .. رأيت مظروفاً مكتوباً عليه عنواني .. ورقم صندوقي البريدي .. وعنوان الراسل .. كان المظروف أنيقاً .. تأملته وفي نفسي نشوة من فرح .. تنبهت إلى رجل وقف بجواري .. وفتح صندوقه البريدي .. ارتدت نظراتي إلى صندوقي .. كان خالياً .. أخرج الرجل رزمة من الخطابات .. وكأنه على علم مسبق بوجودها .. تناولها وغادر بملامح باردة .. وتوقف آخر يتأمل صندوقه الخالي .. ثم هز رأسه وانصرف .. قلت لابد أنه مثلي ينتظر مكتوباً لم يصل .. وانصرفت في إثره.

في مقهى قريب جلست غارقاً في ضجة الأصوات .. أغاني الكاسيت .. النادل .. زبائن المقهى .. أبواق السيارات .. اقترب النادل يحمل في يده مظروفاً أنيقاً .. ذات المظروف الذي رأيته .. أراه الآن في يد النادل .. انتبهت إلى صوته يسألني:

- طلباتك ؟

- كوب من الشاي من فضلك ..

كانت نفس اللمحة الخاطفة .. وكان المظروف الذي رأتيه

من قبل .. يا هذه العيون البعيدة .. إن لم أكن في مجال بصرك .. فاجعليني في فضاء قلبك .. واذكريني إن شئت صباحاً .. أو حتى في المساء.

فـــي كل مرة كنت أجد الصندوق خالياً .. أنا الراحل في متن العيون .. أودعت في قلوب الأحبة ذخراً من كنز مودتي .. واحـــتفظت في جيب سترتي البالية بنهر من محبة .. ولمرتين متتاليتـــين وجـــدت مظـــروفاً في صندوقي .. خاب ظني حين عـــرفت أنه يخص المرأة التي استأجرت الصندوق من قبلي .. أودعته عند موظف الشباك .. فشكرني لأمانتي.

لكن ذات مرة .. كان الأمر مختلفاً .. في داخل الصندوق وجـــدت مظـــروفاً مزركشاً ومكتوباً عليه عنواني .. أغمضت عيني .. فتحتهما .. ليس ثمة لمحة خاطفة .. الأمر حقيقة إذن .. قفـــز قلبي إلى الصندوق .. لمست المظروف .. كان دافئاً . وعـــرفت أنني لن أقوم بتسليمه لموظف الشباك هذه المرة .. تناولـــته وخـــرجت مـــسرعاً .. عبرت إلى الجهة الأخرى من الطـــريق .. وقـــبل أن أبتعد تماماً .. تذكرت أنني نسيت قلبي معلقاً بداخل الصندوق.

2002 . 2 : 10

عـربــة أحـــلام

(1)

هــو الليل .. مرفأ الحلم .. وعجين السر والآثام .. كلما أوغل في ظلمته كمم فم الريح لئلا تبوح ..

الجمــيع يجرون عربة أحلامهم .. المثقفون والفلاسفة .. والكارزمــيون .. والجنــرالات ... والكناســون .. والأطباء .. والأميون .. ورجال الأعمال. والإسكافيون .. والباعة المتجولون .. والعتالون ..

مباح للجميع أن يحلموا .. مباح لي الحلم كالماء والهواء .. لن أخسر شيئا من مالي لأشتري أحلاما طازجة أو معلبة .. أطفأت النور .. وشرعت أجر عربة أحلامي.

(2)

فـــي الصباح طردت بقايا الكسل .. رشقت وجهي بحفنة مـــاء بارد .. وانطلقت إلى لزوجة الهواء .. تدهسني الهواجس فأركلها وأمضي .. قلب مشرع .. وأمنية تُعبّد الطريق بسذاجة

.. وســاعة في يدي أمتلكها ويفر منها الزمن .. فألاحقه بصدق يقارب الغباء .. حتى يتفصد العرق مني.

فــي المحطة التقيت صديقي المهووس بأقراص ال CD والبــرمجيات .. متقد وله حيوية نحلة .. وشعره اللامع مدهون بــزيت (ســبع زيوت) .. تبادلنا الأحاديث .. ومر الموظفون الــذين خــانهم بندول الوقت .. اهتزت الأكتاف وحثت الأرجل الخطى .. وصاح بائع الصحف اليومية :

(أخــبار بــنغازي .. أخبار بنغازي) .. وقال صديقي وشعره يلمع تحت ضوء الشمس :

- لاعاصم من شبكة المعلومات .. ..

أطلق شرطي المرور صافرته .. ومرت الحافلات المكتظة والعربات الطائشة .. واقترحت على صديقي أن يرافقني إلى مقر الــشركة لأستفسر عن قرار تعييني .. وصاح الشاب الذي يُخرج نصف رأسه من نافذة الحافلة (.. البركة .. بوهديمة .. البركة .. بــوهديمة ..) قفــزنا إلى الحافلة .. غرقنا في الأنفاس .. وقال صديقي :

- إن في مدينة سايبرآباد عقولاً تطور البرمجيات ..

الحافلة تمضي مثل كائن كسول .. السائق يدس الكاسيت في الجهاز.. وصوت نانسي عجرم يسبح مع العرق والأنفاس (.. حبيبي قرّب .. بص بص .. زعلان ازعل .. نص .. نص..).

صـــديقي يسهب في الحديث عن البرمجيات .. وأنا أميل إلـــى افتراض وجود سكرتيرة مكتنزة في مقر الشركة .. تحمل الملفات إلى مكتب المدير .. تنشر أنوثتها وعطرها (مدام رشا) أمام أناقته فيمهر الملفات .. ويمهر معها قرار تعييني.

(3)

أمـــام المـــدخل الـــرئيس للـــشركة انتظرنا .. وقال موظف الاســـتعلامات بعـــد أن وضع سماعة الهاتف .. إن قرار التعيين لم يـــصدر .. غـــام الـــشارع في عيني .. وقفلنا راجعين .. صديقي يحدثنـــي عن فيروسات الكمبيوتر .. وأنا أقيس بمسبار خيبتي عمق بالوعة معتمة تنشق لها أحشائي ..

مضينا إلى منزل صديقي .. جلسنا أمام شاشة الكمبيوتر .. ووضـــع صديقي أحد أقراص الـــ CD في الجهاز .. شرعنا نلعب .. لعبنا وربحنا وخسرنا وفي كل مرة كنا نعاود الكرّة مع قرص آخر.

(4)

فـــي غـــبش الليل كنت أجر عربة أحلامي وسط مكتب شاغر بمقر الشركة .. وكان صديقي يجر عربة أحلامه المليئة بأقراص الـــ CD .. في غبش الليل كان الجميع يجرون عربة أحلامهم.

4002 . 6 .13

* * * *

عين التأويــل

(1)

فـــي الـــبدء كنت أبحث عن تأويل ناعم الملمس لوسواس صغير يزحف صوب أروقتي .. يعشش فيها .. يضع بيضَه .. يفقــس البــيضُ .. فتخــرج مــنه وساوسَ صغيرة .. تنتشر كالجرذان التي تقضم الاخضرار.

وذات إحــساس صــباحي غارق في البلاهة .. كنت أنا قطعةَ حلوى مزدانةً بالمكسرات .. وكان أصدقائي ومن حولي يلتهمونـنــي بــشراهة عجيبة .. وفي غمرة شعورهم بطعم حلو المذاق .. كنت أصرخ :

- يـــا إلـــه الـــسماء المرفوعة بغير عمد .. امنحني قلباً بمــساحة هذا العالم الذي فقد ألوانه .. يتسع للطيبين والمداهنين والنرجسيين وأنصاف الأتقياء.

(2)

في سطوة التأويل تعبرني الأوقاتُ المهدورة في الأحاديث المقهوية .. والخياراتُ التي لم تكن صائبة .. الأوقاتُ الممنوحةُ

لتملق الأسافل .. والطقوس التي تجبرني على التبجيل .. هذيانُ المـــشاعر الفقيرة في أوقاتِ الكسل اللذيذ .. والأشياءُ الصغيرةُ التـــي أزدريهـــا فتنمو وتكبر .. المشاهدُ الضبابية التي تباغت المخـــيلة .. وتجرها إلى عوالم حلمية .. شرفةٌ لموسيقى ناعسة .. كلمـــا أفتحها تحمل إلى الروح وصفاتِ الدواء .. دو .. ري .. مي .. فا .. جرعتان في الليلة الواحدة تكفيان لوأد الخيالات المقيتة في قوة التذكر .. البروتوكول اليومي لرقصة البندول .. تـــك .. تك .. تك .. تك .. والوجوه التي تصب الكوابيس في أحلامـــي .. فأستيقظ قبل رنين منبه الساعة .. مسكوناً بصداع يـــدق طـــبوله فـــي رأســـي .. ويُخرج لسانه لحبات الأسبرين والباراسيتامول.

(3)

فـــي الشوارع المعجونة بالفوضى .. أتوقف أمام النافذة التي يطل منها وجهُ المرأة ذات العينين الشاحبتين .. تنظر إليّ بمودة .. تشير بيدها فأهرع وأرتقي السلالم المؤدية إلى بيتها.

عند المدخل منحتني ابتسامة صغيرة وقالت :

– بينـــنا حمـــام زاجـــل ومودة قديمة .. وفوق الأريكة

فرشـــت أحاديثَها .. عن توقها إلى الرغبات المجنونة .. وعن أصدقائها الذين لاحقوا فتنتها .. وتسلقوا جنة نهديها .. منتشين باشـــتعالَ نبيذِها في عروقهم .. ثم تساقطوا كما يسَّاقط الرطب الفاسد .. دعوتها إلى نزهة قصيرة .. وفي اتساع الشوارع رآنا أصـــدقاؤها الـــذين رمـــوها بسهامهم .. فشحذوا سكاكينهَم .. واغـــتالوا ضحكاتي المتوسدة ليل عينيها .. ولما انتشر عطري المخـــبؤ في جدائلها .. لعنوا كفي المعطرة لحظة أن مرت فوق شعرها .. وأفسدوا الهواء.

تـــركناهم ومضينا .. أطلقوا كلابهم في اتجاهنا .. صرنا نعدو في الشوارع المرصوفة .. ونلعن الكلاب التي تعدو خلفنا.

(4)

فـــي التأويل الموسمي .. يتقاطر أصدقائي الموسميون .. يجيـــئون بخطـــوتهم الموزونة .. يحملون النرجسَ النابت فوق أكذوبـــة الضمير .. يحملون أوساخَهم التي لا تغسلها كل بحار العـــالم .. ويبحثون عن مطر يطهرُهم .. وأظل أستبدلُهم مثلما أستبدل ثيابي المعروقة في الأيام المشمسة .. وأنشرها فوق حبل الغسيل .

(5)

مدينة تستفيق من نومها القصير .. عارية تدنو من نافذتي .. كعاهـــر عجوز .. يشتعل جسدها بين أصابع الشهوانيين .. روائـــح حنوط وهياكل نحيفة .. مواسم مترعة بالقواقع .. تمد عـــرائش للـــسرد .. عناقيدها حلزونات صغيرة .. وعصارتها مـــداد لدواة تسكب التأويل قطرة .. قطرة .. وثمار نبتة ملعونة .. تنمو في ضوء واهن .. وتضرب جذورها في رخاوة الخوف .. فأســـدل الـــستارة فـــوقها .. كيلا تبصرها عين التأويل .. المجبولة على تجريد المحارات من حلزوناتها.

04 / 12 / 15

* * * *

لحظات توهج

– 1 –

رأسك يعصف باحتمالات مرهقة .. نفسك متوثبة للبوح .. وبريق التساؤلات يشرق في عينيك .. فيما العبارات تبحث عن تأويل في سراديب الذاكرة.

تجلس كعادتك إلى الطاولة ذات الأوراق المتناثرة .. أصابعك تحتضن القلم .. ونظراتك معلقة بمساحة الورقة الناصعة البياض .. همهمات الليل تخرق السكون .. لتصل إلى مسامعك واضحة ونقية .. والقمر المطل بوجهه من النافذة يعرف جيداً أنك مهووس برائحة الحبر والورق .. تنتظر لحظات تميط فيها الأفكار اللثام عن وجهها .. وتتجلى الحقائق أمامك عارية تماماً .. لحظات تعج بألوان الطيف وتلتقي فيها المفارقات .. تخرج فيها الأشياء من صناديقها المغلقة وتبرز تحت الضوء .. تخترق ثقباً صغيراً في ذاكرتك لتنفذ إلى قلبك المفعم بمشاهد الصباحات والمساءات .. وتراكمات الفصول وذكريات السنوات المنفلتة.

- 2 -

تقفز الأفكار في فضاء الحجرة .. يشتعل الموقد في قلبك .. ويحتويك عالم الاكتشاف .. تتدفع الكلمات مثل نهر قد خلت مـــن أمامه السدود .. تظل أصابعك تحتضن القلم .. تغامر في لجـــة بحـــر الحروف .. تحاول الإمساك بزمام لغة تعشقها ولا تمـــتلكها .. تتـــشابك مع مفردات جديدة .. ويعتريك القلق حين تـــراوغك الكلمات وتتعثر .. تئن كلماتك بالمحن والهموم فوق أديم الورقة .. تتسلل بهدوء إلى قلوب تعرفها وأخرى لا تعرفها .. تـــضئ فكرة .. وتبدد وحشة .. تمارس الحياة بتفاصيلها .. وتعزف على إيقاعها .. والقمر المطل بوجهه من النافذة يعرف جيداً أنك مهووس برائحة الحبر والورق.

* * * *

هاجس الصحوة

بعد أن جلس إلى الطاولة المنزوية في ركن الحجرة .. أخرج من جيبه محفظة مليئة لحد الانتفاخ .. شرع يفرغ ما في جوفها .. أوراق هوية .. أرقام هواتف .. صور فوتوغرافية .. أزاحها بيده جانباً .. وقبض على حزمة الأوراق النقدية .. قال لنفسه بعد أن أحصاها ثلاثاً :

ـ غلة لا بأس بها .. إنها تكفي لأسبوع آخر .. أكل وشراب .. وأسقط نظرة أسفل قدميه يتأمل حذاءه المتآكل وأضاف :

ـ وحذاء جديد .. أجل .. حذاء جديد لامع تنعكس فوق مقدمته أشعة النهار تبسم ضاحكاً .. قهقه طويلاً .. حتى إذا انبعث صوت في أعماق نفسه انتفض من مجلسه :

ـ لماذا سرقتها أيها المعتوه ؟ .. لماذا ارتكبت ذلك الفعل المشين ؟

اللعنة .. سأخمد صوت هذا الهاجس في نفسي .. حتى لا يعكر صفوي .. كذلك قال لنفسه .. وامتدت يده تحت الطاولة

ليخرج زجاجة مليئة إلى نصفها بالخمرة المحلية .. تجرع الكأس الأولـــى .. سرت في أوصاله رعشة خفيفة .. وأحس بوهج مثل وهج الجمرة يحرق جوفه .. ثم أشعل لفافة من التبغ ..

ســوف يحترق الهاجس الداخلي بوهج الكأس .. ويختفي تماماً قال ذلك وتنهد بارتياح ..

تــناول الأوراق النقدية مثبتاً إياها بين السبّابة والإبهام .. شرع يرتبها حتى بدت مثل أوراق لعبة (الكارطة) .. تجمدت نظراته فوقها .. وراح يخاطبها كالأبله :

- أنتِ مجرد أوراق ملونة مثل سائر الأوراق .. لا بل أنـــتِ مختلفة عنها تماماً .. الشوارع مليئة بالأوراق .. وكذلك أماكن القمامة .. تلك أوراق ندوسها بأقدامنا فيما نذرع الأرصفة والطرقات .. لكن نادراً ما نعثر على ورقة نقدية في الشارع .. تجــرع الكأس الثانية .. زفر زفرةً حادةً .. وجذب نفساً عميقاً من السيجارة .. ثم نفث سحابة دخان كثيفة تماوجت في فضاء الحجرة .. واسترسل يقول :

أنـــتِ أوراق ذات أهمـــية في حياتنا .. آه .. ما أصعب الحــصول عليك .. .. أنتِ لست كسائر الأوراق وإلا لما كنت

تتعمـــين بالدفء في جيوب المعاطف وأدراج الخزنات .. فيما تنام الأوراق الأخرى فوق الأرصفة مثل المتشردين .. وقاطعه الصوت القادم من أعماقه:

- لماذا سرقت ذلك المسكين ؟ .. ما ذنبه ؟ .. لا بد أنه قــد عاد إلى بيته خاوي الجيوب .. حيث تنتظره عيون الأطفال وســؤالاتهم البريئة .. وضع الأوراق النقدية جانباً .. امتعض وجهـــه .. وأحـــس بـــسخونة الدماء في عروقه .. شرع يتأمل الزجاجة والكأس .. وكأنه يبحث عن خلاص من الهاجس الذي يساوره .. ثم دلق في جوفه كأساً أتبعها بأخرى .. حتى كاد أن يتقيأ أحشائه .. وراح يهذي :

- لست مذنباً .. أجل لست مذنباً لقد هجرت حياة التشرد واللصوصية .. سئمت رائحة السجون .. ولعنت في نفسي ذلك اليوم الذي عرفت فيه السرقة .. لكن اسمي ظل عرضة لمنخل الفــضوليين .. ســمعتي ترافقني مثل طائر نحس يرفرف فوق رأســـي .. ارتشف كأساً أخرى .. تثاقل رأسه قليلاً .. والأشياء تمايلت أمام بصره بطيئة واسترسل في هذيانه :

- فـــي ذلك المخبز .. عملت بجد .. كنت قوياً كالبغل .. أحمل جوالات الدقيق فوق كتفي .. ذات يوم رأيت أحد الزبائن

يرمقنـــي باشمئزاز ظاهر .. ويهمس في أذن الخباز .. طردني بعدها صاحب المخبز .. وأنا لم أسرق منه شيئاً .. بل لم يخطر ببالـــي مثل ذلك الفعل .. طرقت كل الأبواب .. أكلت الأرصفة حذائـــي .. كنت كالمتسول أبحث عن عمل .... دلق في جوفه كأساً أخرى ..

الـــسرقة فعـــل يشعر بالاشمئزاز .. أجل .. أعرف ذلك جيداً .. لذلك أقلعت عنها .. في الميناء كنت أقوى الحمالين .. كنت أعمل بإخلاص .. قانعاً بأجري .. أحدهم نعتني باللص .. لم أحتمل إهانته .. تحولت الأفكار إلى عفريت يعربد في رأسي .. وغاصـــت الأشـــياء أمامي في بحر العتمة .. وجدتني أشُج رأسه بقبضتي .. سالت الدماء فوق وجهه .. سقط مغشياً عليه .. وفُصلتُ من العمل ..... لماذا أخجل من نفسي ؟ .. لماذا ؟ .. سبحت الحجَرة في ضباب كثيف .. وصارت رأسه ثقيلة مثل كرة حديدية .. ثم مالت نحو كتفه .. فيما كانت الزجاجة فارغة تماماً.

* * * *

هــروب الأفــكـــار

يقولون أن الأفكار ملقاة على قارعة الطريق .. هكذا قلت لنفسي وأنا أذرع الرصيف الممتد امتداد الشارع الطويل ..

قـــد تصادفني أفكار في الطريق .. أو ألتقي بفكرة جالسة فـــي المقهـــى ترتـــشف الشاي .. لابأس ..مثلما المدينة مليئة بالوجوه .. لابد وأن تكون مليئة بالأفكار .. المدينة امرأة تفتح ذراعيها للجميع .. تعشق البعض وتلفظ الآخر .. المقاهي تعج بالرواد .. رائحة تبغ محلي .. عرق أجساد منهكة .. واجهات محـــلات .. مـــداخل ومخارج .. نوافذ كثيرة .. أين أنت أيتها الأفكار ؟ .. طابور عربات وإشارات ضوئية .. أناس ينتمون لمجتمع الحافلات .. وآخرون على مقاعد السيارات .. لابد وأن الأفكـــار تعـــشق زحمـــة المدينة .. لامجال لامتداد البصر .. النظرات تصطدم بجدران المباني.

وفـــيما كان رأسي مثل كأس أفرغ من محتواه .. تطلعت بشغف أتفحص الوجوه .. رجل يطالع صحيفة .. إسكافي فوق الرصيف يرتق الأحذية .. امرأة تحاصرها النظرات .. عجوز

يـــستند إلى عكازه .. رجل أنيق يرتدي بذلة وينتعل حذاء لامعا .. شـــحاذ بـــائس تـــتجه كفـــه لأعلى .. مراهق تنتزع فتيات المـــدارس نظـــراته .. تعالت أصوات المنبهات .. والأحاديث المختلفة .. وصراخ سائقي الحافلات .. ازدادت حدة .. والتقت في مزيج واحد .. كان يصب حممه في طبلة أذني ..

أعتـــرف بعجزي عن لقاء الأفكار .. أعترف بذلك دون خجل..

لـــو كانـــت الأفكار طيورا لرأيتها تنشر أجنحتها .. قلت أمازح نفسي :

– اســـتغرقني شـــعور آخر .. سئمت ضجيج المدينة .. أحتاج للبحر ..

يممـــت صوب الشاطيء .. جلست فوق صخرة ناتئة .. وقلت لنفسي :

– إذا كان ثمة أفكار تعبر البحر فستمر من أمامي.

أطلقـــت العنان لنظراتي تمسح الأفق البعيد .. فيما كانت النوارس تنشر أجنحتها في الفضاء اللا متناهي ..

* * * *

واجهــــة

– 1 –

تحتوينـــي القاعـــة الفسيحة ذات الأعمدة الرخامية ... وأنا أقلـــب فـــي التذكارات القديمة .. يتلاشى كل شئ من حولي .. الموظفـــون ذوو القمـــصان الأنيقة وربطات العنق .. الكراسي المكسوة بالجلد الأسود .. أصص نباتات الظل التي تزين الزوايا .. الثريات المتدلية من السقف .. كلها تتلاشى .. خطواتي تثاقلت عـــند الـــسلالم الـــرخامية المفروشة بالسجاد.. صرت أنا وحدي أرتقي السلالم المؤدية للطابق العلوي .. (أنا العاشق حتى الوهم ... تحـــط حمائم القصائد فوق شباكي المشرع في وجه الليل .. وتغفـــو حتى يصير الأفق بلون الفجر .. أحمل بداخلي تفاصيل حكاية لم يخبُ نورها .. أزيح السد عن نهر من الحنين فيتدفق .. وأنفخ رماد سنين تراكمت فوق جمرات الحكاية).

أتنـــبه لوجـــودي أمام الواجهة الزجاجية للممر .. أتأمل انعكـــاس صـــورتي على الواجهة .. (وعلى واجهتي الداخلية انعكـــاس ملامـــح امرأة أسكنتها نبض الحروف في القصائد .. وكـــنت أراهنها على الحب والعبث واشتهاء الحضور في عتمة

الغياب .. كنت أنا البحر في هياجه .. وكانت هي الصخرة التي تتكسر فوقها أمواجي).

يبتلعني المدخل .. وأنا أدعي الثبات والهدوء .. وأتمسك بنبـضات قلب كادت أن تنفرط .. المكتب الثالث إلى اليمين .. طرقت الباب .. ودلفت إلى الداخل ..

– صباح سعيد.

– صباح الخير .. كيف حالك .. ما هي أخبارك ؟

هكـذا ترد (سلوى) وهي تستقبلني من وراء مكتبها .. تـرتدي ثـوب زمن كان طافحاً بالبوح والمحبة .. (يا موسم العـشق الـذي هجـر مساءاتنا الجملية .. موحشة قلوبنا وهي تفتقدك .. تائهة نظراتنا حين تحدق في الفراغ وتبحث عنك).

هـي لـم تتغير .. السنوات انفلتت من بين أيدينا .. تغيرت أشياء كثيرة .. تغيرت أنا .. وهي لم تتغير .. عيناها صافيتان .. نظراتها آمنة .. و قلبها طفل صغير.. تتساب الذكريات في هدوء المكتب الصغير .. وأنا أجلس قبالتها .. تتكثف حواسي وأنا أستمع إلـيها .. تـسألني عـن أحوالي .. تحدثني (وأنا أتخذ من رهافة العينـين مـدى لانطلاقـي فأصـير في براح نبع يروي الضمأ المـستوحش فـي داخلـي .. ثم أرتد ثانية .. فتتحول عيناي إلى

كاميـــرا تـــسجيل تلتقط دقائق قسماتها .. تختزنها .. حتى أستعيد الصورة بعد أن أخلو لنفسي وأدون اعترافاتي فوق طاولة الليل).

تـــشتعل الرغبة بداخلي في أن أضمها مثل حورية رائعة .. أحـــتويها فتسكن في روحي .. وأسدل فوقها ستارة من دفء العواطف ..

أقول لها :

ـ ليس في العشق خيار..

تلامـــس كلماتي وجنتيها وهي توافقني الرأي .. ويشتعل فيهما وميض خجل أعرفه .. نغرق في بحر الحكايا .. وتسألني بنبرات صوت أدمنت سماعه :

ـ ما هي أخبار كتاباتك الجديدة ؟

ـ لا بأس .. ثمة أعمال في طريقها للنشر..

أعدها بأن أكتب لأجلها نصاً رائعاً .. تفك ربطة شَعرها المثبت في ضفيرة واحدة .. فيسترسل واضح النعومة .. ثم تعيد لمه وتسألني:

ومتى ستكتب هذا النص ؟

ـ قريباً .. قريباً سأكتبه ..

(ســأكتبه وقــت اكــتمال قمــري .. سأكتبه في لحظة انشطاري نصفين .. نصف يعشق ونصف فوق ضفاف الشوق يمــوت .. سأكتبه لأجلك .. ولأجلي أنا أيضاً .. سأهديك نصًّا يمتص وحشتك .. لتقرئيه على مهل .. وتبصريني واقفاً بكامل هيئتــي وراء الكلمــات .. سأكتب أنني سفير الزهور إليك .. أحمــل شذى وياسمين .. وبذرة ألقيها في براح وجدك .. لتُنبت زهــرة وحيدة في العالم تشبه حكايتنا .. سأكتب النزف والشوق .. سأكتبك أنتِ كما أعشقك).

وتنشره في أكبر الصحف ؟ تسألني.

– أجل بكل تأكيد سأنشره في أكبر الصحف.

– 2 –

بعــد أن غــادرت المكتب الصغير .. ووعدتها أن نلتقي ثانــية .. صرتُ مثل صياد يلقي بسنارته .. كنت أجمع كلماتي .. كلمة .. كلمة .. وأبحث عن كلمات تحتمل إدمان الجرح .. دون أن تعجز عن قول الحكاية.

2002.7.20

* * * *

الفهـــرس

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

＊ ＊ ＊ ＊

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة

جمهورية مصر العربية

16 عمارات العبور – شارع صلاح سالم – مدينة نصر

تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com

حسن أبو يوسف اللموشي



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام